رواية

الفصل والوصل

سعيد سالم

توصلنى وتقطعنى وتدعو ثم تمتنع
فلا وصل ولا فصل ولا يأس ولا أمل

-1-

من المؤكد أن زمنك سوف يولى منك بالتقادم، وسوف يتركك على حافة الموت والحياة معا ،جالسا على مؤخرتك وحيدا صفر اليدين، لاشىء لديك تبكى عليه.لا تبتئس لذلك فتلك نهاية الجميع ، بصورة أو بأخرى ، بل وربما يتبين لك يوما ما أنها نهاية عادلة.

استعرض واسترجع بذاكرتك كيفما شئت كل مافعلت وما لم تفعل ، وما كسبت وما خسرت وما قرأت وما كتبت، وما قلت وما لم تقل، ولكن اعلم أن أمامك خياران قد تبقيا أمامك ، ولاعلاقة لهما بما قاله لك أحد الأطباء بلباقة، إن حياتك قد أصبحت على كف عفريت، بعد أن تعرضت للموت مرات ثلاث متعاقبة، بسبب اصابتك بعطب فى مخك. لست أدرى لماذا أكاد أجزم – كما فى الأفلام المصرية القديمة - أننى سأعيش بعد موت هذا الطبيب لسنوات عديدة، سوف أسأل عن عددها أول من يلحق بى فى العالم الآخربعد رحيل الطبيب.

الخيار الأول أن تستزيد مما تبقى لك من قدرة على الاستمتاع بكل المتاح من ملذات الدنيا ونعيمها، وتظل تستزيد وتستزيد من نشوة حاضرك، حتى تلفظ أنفاسك راضيا سعيدا هانئا بما غنمت من لذة ونشوة وحبور ، شريطة أن تكون مستعدا لمواجهة عواقب اليوم الآخر ، لاسيما وأنت تعرف عن أهواله الكثير من مداومتك على قراءة القرآن ، أو أن تحذف ذلك اليوم من ذاكرتك وضميرك ولا تفكر فى عاقبة ماتفعل على الاطلاق.

الخيار الثانى أن تتخلى عن كل ما تملكته وما تملكك من مال وشهوة وبنين ونساء ومعرفة وشهرة وسلطة وأحباء وأصدقاء ، وطعام وشراب وشعر وموسيقا ورقص وأغان ومتعة ، مكتفيا بأن الخبز مخبوز والماء فى الكوز..ولاتفكر الا فى اليوم الآخر، فتعمل له كل حساب ، وتستعد لمقابلة ربك وأنت فى غاية من الطمأنينة والسعادة وراحة البال.

..ولن تستطيع أن تختار مالم تعرف كيف تعرف نفسك!!..

****

وضعنى الاختيار مرغما فى سباق مع الزمن ، إما للاستحواذ على الدنيا فيما تبقى من وقت متاح ، وإما للطمع فى منزلة كريمة بالدار الآخرة.

سبق أن خضت أكثر من مرة تجربة أن تعيش حالة من التوفيق بين النقيضين ، لكنك كنت تكتشف فى النهاية أن الزمن الذى عشته لم يكن توفيقيا بقدر ما كان تلفيقيا. ولكم تمنيت أن أكون رجلا ربانيا خالصا، ينكشف عن عين قلبى حجاب الحس ، وينفتح من دونه باب القدس ، فأرى مالاعين رأت وأسمع مالا أذن سمعت ، وأذوق من الحقائق والدقائق والرقائق ما لايخطر على قلب بشر.. وأكرر المحاولة مرة وراء الأخرى ، لكنها لاتلبث أن تذوى فى أسابيع قليلة، إذ يفتر حماسى بالتدريج ، وأجدنى منجذبا من جديد الى فلك الحياة ، ربما لمجرد سماعى لبحة صوت أنثى تزلزل وجدانى وتثير فيه عشقى للحياة. وكم تمنيت أحيانا أخرى أن أظل أعب من نشوة الحياة حتى الثمالة ، وأن أعتصر رحيقها وألتهم جمالها وأذوب فى فتنتها حتى الموت..وأبدأ المحاولة ، لكنها لاتستغرق أكثر من فترة وجيزة حتى أفيق لنفسى وقد أنهكنى الشعور بالذنب ، فأعود مذبذبا من جديد، لاطلت أرضا ولا سماء.

كانت رسائل الموت الثلاث بمثابة تحذيرات سماوية تحثك على اتخاذ موقف محدد بأقصى سرعة ممكنة قبل أن يدهمك عزرائيل فى أى وقت ويعيرك بالفرص الثلاث التى أضعتها بخيبتك. مع ذلك بقيت كما أنت. نفس الرجل المذبذب بين الرجلين اللذين لم تستطع أن تكون أحدهما.. يبدو أن مايؤخذ من الآخرة يخصم من الدنيا ، وأن مايؤخذ من الدنيا يخصم من الآخرة. من الصعب إذن أن تحقق نجاحا ملموسا فى حل المعادلة الصعبة التى يمكن التعامل بنجاح بين طرفيها المتناقضين.

فى الروضة هاتفنى النذير أن أبادر بالتزام الطرف الربانى، حين انتابتنى رعدة شديدة وأجهشت بالبكاء لدقائق طويلة دون السيطرة على نفسى. خرجت من باب المسجد طائرا محلقا فى سماء الرضا والمحبة وسكينة الفؤاد وطمأنينة البال ، وقلت ان معضلتى قد حلت بحمد الله ،

ولكن هأنا – بكل نذالة - أكتب ما أكتبه الآن بعد مرور سنوات على تلك اللحظة القدسية، فيبدو أن أى شىء فى هذه الحياة يمكن أن يحدث ، وأن كل شىء يمكن أن ينسى مع الزمن مهما بلغت أهميته، وأن معرفتى لنفسى بحاجة الى جهد جهيد يقودنى الى معرفته فمحبته ، فالمحبة هى ثمرة المعرفة وان لم أعرف نفسى فلن أعرفه ، وان لم أعرفه فكيف أحبه ؟ ، وان لم أحبه فكيف أجرؤ على التفكير فى طلب الخلاص المعلق بمشيئته؟..

هاهى جولة جديدة أعاود فيها المحاولة. بدأتها بتصفية أعمالى الوظيفية ومعظم أعمالى التجارية، بحيث لم يعد لدى الا القليل مما قد يشغلنى من عمل يستنفد الوقت والطاقة على حساب المحاولة. منذ ذلك الحين استحوذت علىّ رغبة عارمة فى المشى طول النهار، وأحيانا بالليل حتى ينهدّ حيلى ، بغير هدف سوى أن أعرف من هو عادل المصرى هذا ، حتى أستطيع الوصول الى قرار.. أمشى وأفكر. من عرف نفسه عرف ربه. أفكر وأمشى . لعلى أنجح فى ذلك بمراجعة مواقفى من الحياة. أحيانا أجلس الى مقهى لأستريح قليلا وأتناول مشروبا ثم أواصل المشى.أحيانا يدفعنى عطب المخ الى الجرى فى حدود الهرولة حتى أتعب فأتوقف منهكا.

كثيرا ما أتوقف للتأمل بتركيز فى هيئة انسان عابر، أو للتصنت باهتمام على حوار دائر بين اثنين.أحيانا لايكون هناك مكان متاح للراحة فأجلس على الرصيف فى قارعة الطريق غير عابىء بشىء، حتى أشعر بالراحة فأعاود المشى وتأمل ما يجود به الطريق من بشر ووقائع، بينما أجتر ذكرياتى ، سواء كانت مرتبطة بما أراه فى اللحظة وأتأمله بتداعى الأفكار،أو لم تكن مرتبطة به على الاطلاق وإنما استرجعت بفعل ارتباطات نفسية غامضة.

وكانت عادة المشى قد ارتبطت عندى بالتفكير بصوت مسموع حين يلم بى ضيق أو كدر ، يتضاءل كثيرا مع المشى، سواء انتهت الرحلة بوضع حل لما يؤرقنى ، أو بالتوصل الى نوع من التعايش معه ، أو الاستسلام بشأنه لليأس المريح.. وفى جميع الأحوال فالنتيجة المأمولة دائما هى راحة البال ، ولو لم تتحقق على الوجه الأكمل.

مع اعتيادى مواصلة المشى لمسافات وأزمنة طويلة، علمت نفسى وسائل عديدة أستنزف بها الوقت خلال التفكير. أحيانا كنت أستخدم جهازا صغيرا يذيع الموسيقا والأغانى المسجلة من خلال سماعتين مثبتتين فى أذنى ، وأغنى معه فى بعض الأحيان غير عابىء بشىء.أحيانا كنت أتسلى بترديد بعض السور القرآنية القصيرة التى أحفظها جيدا. أحيانا أخرى كنت أنخرط فى الدعاء الى الله بكل مطالبى الدنيوية المتغيرة على الدوام، والمرتبطة بالرزق والصحة وسعادة الأسرة، دون الجرأة على النطق بمطالبى الأخروية التى أحلم بها وأسعى اليها.

أجول فى الشوارع والأزقة كيفما اتفق، صعودا وهبوطا على مقام الأمل فى نجاح مسعاى. توقفت أمام مطعم شعبى عليه لافتة بعنوان: "مسمط عباد الرحمن للكوارع ولحمة الرأس". أميل دائما الى المقاهى الشعبية والمطاعم الشعبية ، رغم أننى أعشق الأماكن الفاخرة ومطاعم الفنادق الكبرى التى ارتدت كثيرا منها فى القاهرة والاسكندرية وأوروبا وأمريكا.. أخشى أن يقذف بى عشقى للنقائض فى النهاية الى الجحيم.

أكلت بشراهة وكانت أم كلثوم تشدو بأغنية "مصر التى فى خاطرى وفى فمى". لايمكن أن تجد مطعما كهذا فى أى مكان غير مصر التى تستوعب كل شىء وأى شىء ، فيرد اسمها بمحبة الى خاطرك بينما يتقلب الكورع الدسم مطحونا بلذة فى فمك، وأنت تعلم جيدا قدر الأذى الذى يلحقه بك لكثرة دهونه وجيلاتينه وكولستروله. لكن هذا كله يهون بمنتهى البساطة أمام استمتاعك اللانهائى بشهوة استطعامه وتلذذك بها وعلى الدنيا السلام.

ولما كان الانسان مغرما بتعذيب نفسه ، فإن استنشاق كمية لابأس بها من دخان السجائر والمعسل بشراهة عقب هذه الوجبة المدمرة ، يسهل على النيكوتين أن يتزاوج بالدهن فى عشق على جدران شراينك ، ثم يترسب عليها وليدهما مع الوقت، ويضيق مجرى سريان دمك اللزج الثقيل ، حتى يأتى اليوم الموعود الذى تتمنى فيه الموت لتتخلص من شدة الألم الناتج عن انسداد شريانك التاجى.

فوجئت بصاحب المسمط يوقظنى من النوم وقد وضعت رأسى فوق ذراعى على المائدة ورحت فى شخيرعميق. قال لى ساخرا:

- نوم العافية ياحضرة
- عافاك الله. أكلك جميل لكنه ثقيل

أجابنى بمنطق الفلاسفة ولكن فى عفوية حقيقية :

- نومك ليس من الطعام وانما من الطمأنينة

بينما أشرب الشاى الثقيل وأفكر فى تشخيصه الخاطىء لحالتى التى لاتمت الى الطمأنينة بصلة، فوجئت بهاتف غير مرئى يهمس فى أذنى بصوت يشرح الصدر:

- **أنا الشيخ منصور**

أصابتنى الدهشة وأنا ألتفت يمينا ويسارا فلا أرى أحدا.

قال لى:

- **لاتخف. ستسمعنى فقط لكنك لن ترانى**
- من أنت بالله عليك وماذا تريد منى؟

قال لى بنبرة عتاب مخلصة:

- **كيف تتركه وتبحث عن خلاصك عند الناس؟**

شردت طويلا. أسمع عنه دائما من الحاجه فردوس. أما أن يخاطبنى مباشرة فلابد أنها علامة هامة على الطريق الذى أنشد الخير فى نهايته. قلت لنفسى ان لكل شىء فى هذه الدنيا نهاية ، أما اللانهاية فسوف تأتى فيمابعد. اختلط على تفكيرى حين فاجأنى بالقول واثقا:

- **عندى احساس قوى بمشكلتك**

قلت له ملهوفا والمعلم صاحب المسمط يرقبنى متشككا فى أمرى:

- أغثنى بحل لها لوكان بيدك ياشيخ
- **ابدأ بالتوحيد بين أزمنتك فكلها نسبية**
- **.....**
- **ربما يتساوى يوم عند الله بخمسين ألف سنة من سنواتنا**
- وكيف يتم ذلك التوحيد؟
- **لاتفرق بين الماضى والحاضر والمستقبل ، فكلها أوقات فائتة**
- لاأكاد أفهم شيئا مما تقول..ألا تتعطف على بالظهور لتشرحه لى ؟
- **ضع فى اعتبارك أننى سأساندك حتى النهاية متى بدأت رحلتك الى الخلاص، و لن ترانى الا فى حالة واحدة ستعرفها فى حينها،لكنى جئتك اليوم حتى تصدق صاحبة المقام العظيم فيما تقوله لك عنى ، وسوف لا أتوقف عن متابعتك وتقديم ما يمكننى من عون.**
- من هى صاحبة المقام العظيم ؟
- **الحاجه فردوس..أمك**

هو عرافها وضميرها الحاضر الغائب ونبوءتها التى فى الأعم لاتخيب ، غير أن أحدا من الأهل والأقارب لم يره على الاطلاق رغم أنهم يعرفون عنه كثيرا من الحاجّة التى تشيد ببركاته ، وبالخير الذى يعقب ظهوره لها فيعم على الجميع.

حين كانت تقول لى أنها رأته رأى العين وحدثها بنفسه ، كنت أظن أنها بدأت تخرف بعد أن تجاوزت مرحلة الشيخوخة ، لكنى لا أستطيع أن أكذب أذنى فقد سمعته اليوم وخاطبته وخاطبنى. ولكى يطمئن قلبى فقد قررت أن أكلمه حتى أراه.

- ما دمت تنوى مساندتى ،أفلا تدلنى على معالم لطريق تلك الرحلة تهدينى الى الخلاص؟
- **الرحلة طريق اغتراب دائم، بدأ باغترابك عن وطن عالم الذر حين أشهدنا الله على ربوبيته، ثم اتخذت من رحم أمك وطنا جديدا ، ثم لم تلبث أن اغتربت عنه بالولادة، لتتخذ من الدنيا وطنا ، ثم هأنت تغترب عنها الآن بحالة تسمى سفرا وسياحة، وفيما بعد سوف تغترب عنها بالكلية الى**

موطن يسمى البرزخ تعمره مدة الموت ليكون وطنك قبل الأخير ، ثم تغترب بعد ذلك الى أحد الموطنين، اما الجنة واما النار، فلا تخرج بعد ذلك ولاتغترب،فتلك آخر أوطانك.

- لكن السفر والسياحة ياسيدنا يتطلبان عمرا طويلا وجهدا جهيدا ، وقد ينتهى بى المطاف فى آخر الدنيا دون أن أحقق بغيتى
- **لاأحد يطلب منك ان تطوف الأرض معتبرا وتطوى الأمصار مختبرا كما فعل ابن بطوطة وغيره من الرحالة العظام. يكفيك زقاق ضيق مسدود فى حارة فقيرة لتستخلص منها مرادك. يكفيك أن تنظر الى عصابة المجرمين الذين نهبوا مصر وأهانوا شعبها وقهروه على مدى ثلاثين عاما ، فتراهم اليوم ملقون فى زنازن السجون من بعد العز والرفاهية والتنعم. ان أى كافر بالله- فى أى بقعة على الأرض - لو تأمل تقلب الأحوال فى هذا المشهد المصرى وحده ، لأعلن ايمانه على الفور ، فما بالك أنت ياصاحب الفطرة السليمة والنفس اللوامة لو تأملت ما حدث ببلدك؟..هل فهمت مقصدى؟**
- نعم فهمت يا سيدى، لكن مشكلتى أننى عاجز عن الجمع بين النقيضين
- **أعلم هذا ، وإنى متعاطف معك ومشفق عليك بشدة ، لا صرارك على خوضك هذه المغامرة الجريئة، التى يخشى معظم الخلق مواجهتها مهما ادعوا بغير ذلك ، ولتعلم قبل أن تخطو خطوة فى الطريق أن الله قد خلق الخلق نوعين، وأبدع من كل شىء زوجين اثنين ، لأن الوحدة خالصة له وحده، فتكون هذه الاثنينية دليلا عليه. وقد فطرالانسان على هذا الازدواج ابتلاء لتختلف به الحال نعمة أوبلاء ، فيدفعه الى عليين أو يقذف به الى أسفل سافلين.كما خلق له الملائكة والشياطين ، وأنشأ فيه العقل والهوى وخيره بين الضلالة والهدى.**
- الصراع بين عشقى للحياة وخوفى من الله ، يأكلنى يوما بعد يوم يا سيدنا ، ولم يعد عندى بديل عن الاصرار على الحرية ، كما أصبح التراجع مستحيلا.
- **ياحبيبى ان الصراع الجدلى بين النقيضين لايحكمه ميزان عدل ، أما التعاون بينهما فهو العدل والوسطية وطريق الخلاص الوحيد. وتحقيق ذلك التوازن بحاجة الى مكابدة ومجاهدة ، فهو من أشق الأمور ، لأن جاذبية الجسد تغالب جاذبية الروح ، وجاذبية الأنانية تغالب جاذبية الغيرية ، وجاذبية طلب اللذة وإشباع الشهوات واستكمال كل أسباب المتاع والكسب والغلبة، فى تنافس سياسى واجتماعى شرس وظالم، من اجل اكتساب الحظ الأوفى منها، كلها تغالب الفضائل الخلقية والقيم الروحية والشعور بالواجب داخل ضمير الانسان..فهل لازلت مصرا على مسعاك يابن المصرى؟**
- نعم ياسيدى والموت دون ذلك
- **كن واثقا أن اصرارك هذا يبشر بنجاحك ان شاء الله.**

لكثرة تلفتى يمينا ويسارا وذهولى فى حضرة الشيخ منصور ، يبدو أن منظرى كان ملفتا لنظر المعلم صاحب المصمت ، الذى غيّر معاملته المحترمة لى قائلا بغلظة:

- شكلك يقول انك لن تدفع الحساب !

****

● **وصــل:**

بينما أمشى فى طريق محاولة معرفة نفسى ،أستطيع أن أدعى بهدوء تام أننى رجل صفرى. سعيد كل السعادة بأن منحنى الله – كما منح غيرى – حرية الاختيار بين ما يقع عن يمين

الصفر وعن يساره ، ومع ذلك فأنا لم أستفد شيئا من هذه المنحة العظيمة ، لا لسبب الا لأننى انسان ملول حائر مذبذب متردد ، أتمتع بقدر من الحياد يسمح لى بالحرية دون أن أوقع الأذى بالغير، فالتناقض بين ارادتى وارادة الغير أمر حتمى لامفر منه بغير اتخاذ سبيل أنفلت به من الصراع بمهارة ، دون أن أضر نفسى أو غيرى قدر المستطاع . بينما سهّل الله على غيرى من الناس حسم مسألة الاختيار دون جهد أو حيرة ، فأعفاهم – لحسن حظهم - من التردد والتذبذب ، وله فى خلقه شئون.

غيرى يختار ويحسم بسهولة فى كل دقيقة من عمره، ومن المؤكد أنه يجد سعادة فى ذلك ، وقد يكون فخورا للغاية بتلك المقدرة ، حتى لو كان غباؤه منقطع النظير، أما أنا فمبعث لذتى وأقصى حدود سعادتى صار الكمون فى طوايا اللحظة الصفرية بكل برودها وتأججها. أستحلب – بوجدان شقى - متعة الانتقال بين أقصى يمين الصفر وأقصى يساره،دون مغادرة جحرى الآمن الذى تعذبت كثيرا قبل أن أتخذ منه لنفسى مأوى من نمور البشر وثعالبها وخراتيتها، وجرذانها وبراغيثها ، ودون أن أنسى وصية الشيخ منصور بتوحيد الزمن أو بإلغائه حسبما فهمت.

مغادرة الجحر لاتكون الا لدواعى تأمين المكان فقط. حتى لو اقتضى الأمر أن أجول ببصرى متفحصا مايدور حول جحرى من أحداث ، فإن الجولة لاتستغرق الا القليل من الوقت، لمجرد الاستناد الى حقيقة مادية تؤكد لى أن جحرى غير مهدد، وأن صفريتى مبدأ قائم بذاته ، لايحقق لى أكثر من توازن استاتيكى بغيض . يكفينى أن أخرج من جحرى حاملا مدفعى ، مطلقا نيرانه فى الفضاء ، صائحا بقوة:

- فيه ايه يا اولاد الكلب؟!..

ثم أعود ، وغالبا ما أصفر فى الهواء بأنغام من ابتكارى الفنى أستوحيها من طبيعة الموقف.

****

قبل تقاطع الشارعين أمرت سائقى الحكومى أن يهدىء من سرعة العربة، لكنه – لسوء حظه – لم يكترث بأمرى ، فاصطدم بعربة أخرى صدمة شديدة العنف. كان يحكى لى عن اتفاق تم على يديه بين امرأتين من جيرانه تربط بينهما صداقة حميمة ،على أن تعير احداهما زوجها للأخرى – على الأوراق الرسمية فقط – كزوج ، حتى تصرف مبلغا كبيرا من المال متعلقا بقضية المعاش المبكر المرتبط بالخصخصة ، إذ كان الشرط الأساسى أن تكون المحالة الى المعاش المبكر متزوجة ، وهذا شىء لم أفهمه حتى الآن ، فعبقرية البيروقراطية المصرية لايمكن التوصل الى سراديب أسرارها ولو بالاستعانة بعفاريت الجن، وصاحبة المصلحة فى المبلغ لم تكن متزوجة.

اتفقتا على تحديد نسبة من المبلغ يكون من حق السيدة المتزوجة. بعد أن تمت الصفقة بنجاح وحصلت الزوجة على نصيبها من الغنيمة فوجئت بصديقة عمرها ترفض إعادة الزوج اليها ، ويرفض هو الآخر اتمام الطلاق. عندما وصل السائق الى هذه اللحظة من القصة، حدث التصادم وانقلبت العربة الثانية بركابها وكانت عربة أجرة. تدافع المارة لإنقاذ الموقف. كانت الاصابات طفيفة فيما يشبه المعجزة. بذلت غاية جهدى لحماية سائقى- الذى أحبه – من بطش السائق الآخر بعد أن أفاق من اغماءته.

كان سائقى المسكين واثقا من مساندتى له فى أزمته بعد أن أثبتت معاينة الشرطة أنه المسئول الأول عن وقوع الحادث. قلت له بابتسامة صفرية:

- لاتفكر الآن فى هذه المسألة ياخفيف ، فأمامك عدة أشهر قبل أن تستدعى للمثول أمام المحكمة.

فى قاعة الانتظار كنت أمارس عشقى القديم بعذاب محبب، فأنا أحد شهود الحادث، بل وأهمهم على الاطلاق. الصفر فى المنتصف والشهادة عن يمينه ومساندة سائقى المحبوب عن يساره.

فجأة اقتربت منى وتفحصتنى بإمعان ، ثم جلست الى جوارى.سيدة بدينة راسخة الوزن والكلمة. قالت لى عن يمين الصفر:

- لاتنس أنك ستحلف يمين الله. ان شهدت زورا سترى سوء العاقبة فى أولادك
- وما يعنيك أنت من هذا الأمر؟
- أنا زوجة السائق الذى تهشمت عربته قبل أن ينتهى من تسديد أقساطها

قبل أن أفكر فيما ينبغى أن أجيب به على تحذيرها وجدتها تنسحب بعيدا، غير عابئة برد فعلى المحتمل. ألقت بإنذارها فى ثقة تامة ثم انصرفت. فكرت فى مصدر هذه الثقة التى لابد لتواجدها من مبررات عند أى انسان غير صفرى مثلها، فالصفرى انسان مهتز الثقة بنفسه وبالناس والحياة.

قلت لنفسى ربما كانت ثقتها بالمدلول الدينى للثواب والعقاب الالهيين، وداين تدان ، وما الى ذلك ، بدليل أنها لم تنتظر منى مجرد تعليق على انذارها النارى المخيف ، وإنما ابتعدت على الفور إيمانا منها بعدالة السماء..قلت أيضا انها ربما تكون واثقة بى رغم أنها ترانى للمرة الأولى. لاشك أنها لم تعرفنى الا بعد أن سألت عنى أحد شهود الحادث من المتواجدين بالقاعة. لكن كيف لها أن تثق بمخلوق لاتعرف عنه شيئا؟..هذا ماحيرنى. لكن من المؤكد أنها كانت تشك – ولو قليلا - فى مساندتى للحق ، تعاطفا منى مع سائقى على حساب زوجها الذى وقع عليه أكبر الضرر.

****

صادقت كل زملائى بالمدرسة وفى الحى، حتى من كنت أشعر أنهم لايبادلوننى المحبة بمثلها. أعترف أننى لم أمارس هذه المعادلة الصعبة من منطلق ملائكى ، لكنه كان سلوكا مطبوعا فى دمى - أو هكذا تصورت – حتى بعد أن كبرت وواجهت العديد من المواقف الحرجة التى اعترضت طريقى فى الحياة ، حين تحولت المعادلة الى شىء من النفاق الاجتماعى الذى يمكن به تبرير ظاهرة الحياد التى أشرت اليها من قبل.

هأنا أشرف على دروس ابنى وأعلمه كل ما أعلم حسبما يسمح عقله أن يستوعب من معرفة وثقافة. لم أكن أعاقبه حين يهمل دروسه أو أكافؤه حين يجتهد فى تحصيلها. كنت أوجهه بأساليب غير مباشرة ، كاصطحابه يوما الى بالوعة مسدودة فى الشارع.كان عمال المجارى يحاولون"تسليكها"، بينما تغطى الأوحال النتنة أجسادهم العارية، والعرق اللزج يتساقط تحت جفونهم المتسخة. شاهدت الألم والقرف والتقزز والاشفاق على ملامح وجهه ولم أقل له كلمة واحدة. اصطحبته بعد ذلك الى مكتبى الأنيق بالعمل. أحضر له الساعى مشروبا مثلجا. عندما عدنا الى البيت قلت له:

- ها قد رأيت الطريقين بعينيك، ولك وحدك أن تختار بينهما.

****

فوجئت بسائقى يقف أمامى متحفزا . قال والغضب واضح فى عينيه:

- هل رأيت ذلك الكمّ من الذهب حول معصميها؟
- لم ألحظ ذلك
- يقاضون موظفا تعسا مثلى لايملك غير راتبه الهزيل. يريدون خراب بيتى منهم لله

قلت له بضمير صفرى يقظ :

- لاتنس أنك أنت المخطىء

أصابه هلع شديد. لم يكن ينتظر منى مثل تلك الملاحظة المخيبة للأمل. رغم هذا فقد قال لى بلهجة تقترب فى قوتها من الأمر المباشر:

- ستقول للقاضى اننى توقفت تماما عند التقاطع ثم اتجهت يسارا

لو نجح الكذب فإنه لاينجح بغير ذكاء. أكذوبته شديدة الغباء لمخالفتها الصريحة لمحضر المرور. تمالكت نفسى حتى لا أنفجر فى الضحك ، إذ غدوت فى أقل من ساعة محلا لثقة غير مبررة لخصمين متنازعين أمام القضاء.. لماذا ينحصر كل أمر فى هذه الدنيا فى الاختيار بين طريقين ، فيصيبنى الضجر والنفور؟..

لم أجد بدا من مغادرة القاعة، فما زال أمامى من الوقت متسع لتأملاتى الصفرية. أخذت فى استرجاع مشهد الحادث واستعادة حوارى مع ابنى بشأنه ، وكنت على يقين من أن الصفرية شىء مختلف تماما عن العدمية رغم تشابههما ، فالأولى – رغم كل شىء- لامفر من أن تنتهى الى قرار أيا كان ومهما تأخر توقيته ، ومهما كانت درجة حياديته أو ميوعته ، أما الثانية فلا تهتم ولاتعبأ بشىء فى الوجود على اطلاقه. كما كنت على يقين من أن الصفرية شىء مختلف تماما عن الوسطية ، فالأولى تقع فى قلب الصفر ذاته ، أما الثانية فهى واقعة فى منطقة ما بين الصفر ويمينه ، أو بين الصفر ويساره ، وسوف أتوصل اليها – بمشيئة الله - يوما من الأيام..

على أية حال ، فحتى صفريتك مشكوك فى أمرها لأنك بطبعك ميال الى اللذة ، وتاريخك القديم يقول ان بندولك يميل غالبا الى اليسار ، ولم يحدث أن استقر طويلا فى قلب الصفر ، رغم تطوحه أحيانا الى اليمين..

الحق أن سائق الأجرة كان مسرعا جدا هو الآخر. صحيح أنه كان يعبر طريقا رئيسيا بينما كان طريقنا فرعيا يحتم على سائقى التوقف أو تهدئة السرعة على الأقل حتى يعبر السائق الآخر. ولو لم يكن سائق الأجرة مسرعا جدا هو الآخر لما تهشمت عربته بهذه الصورة المفجعة ، رغم عدم وقوع اصابات تذكر بين الركاب ،وهذا لغز لم أفهمه حتى الآن ، فمن يرى منظر العربة لايشك لحظة فى أن كل من كانوا بداخلها قد أصبحوا فى عداد الأموات.اننى أحاول دائما أن أدرب نفسى على عدم الوقوف كثيرا أمام ألغاز الحياة التى لا أفهمها خشية على مخى بعد اعادة ترميمه على يد طبيب جراح لم أحبه لحظة واحدة.

سائقى مسكين ، كأى موظف ذى دخل محدود. بالأمس فقط كان يشكو لى من الافلاس ومن قدوم المولود الخامس على غير رغبته ورغم شديد احتياطه. لكن كيف تدعى زوجة سائق الأجرة أن أقساط العربة لم تسدد بعد ، وذراعاها ممتلئتين بالأساور الذهبية؟.. أعلم أن هذا ليس من شأنى فقضية الرزق تخص الرزاق وحده ، ولابد أن يأخذ العدل مجراه فى كل الأحوال..هكذا رحت أتمايل بأفكارى الساذجة فى نشوة مريضة عن يمين الصفر ويساره، حتى خيل الى أننى أرقص رغم يأسى من الرسوّ على بر.

حين اعتمدت شهادة ابنى الدراسية ، لاحظت أن درجاته قد ارتفعت ارتفاعا ملحوظا منذ واقعة البالوعة المنسدة وكوب المشروب المثلج فى المكتب الأنيق. قياسا على ذلك فلو أصبح ابنى صفريا مثلى، فسوف يكون هذا بمحض ارادته واختياره دون تأثير من جانبى ، لأن صفة الصفرية لم تطبع فى دمه كما حالتى التى تمثل سلوكا فطريا لاحيلة لى فيه.

وحتى أتأكد مما أعتقد فقد رويت له تفاصيل الحادث ثم سألته باهتمام مترقبا سماع الاجابة بشغف شديد:

- ماذا تقول للقاضى لو كنت مكانى؟

أجاب بعد تفكير:

- أحكى له ماحدث تماما
- هل تقصد بذلك أن تقول الحق ولاشىء غير الحق ؟
- بل أقصد أن أقول ما شهدته بعيني ، وعلى القاضى أن يستخلص الحق بنفسه
- أى أنك غير متعاطف مع سائقى الفقير
- أنا غير متعاطف مع الاثنين

... ياله من ولد خبيث!..

****

كلما تقدم بى العمر تبين لى أنه كان بمقدورى أن اتحرر من هذا الشىء المزعج الذى فطرت عليه، أو على الأقل أطور من حالتى لتصبح أكثر فعالية تجاه مواقف الحياة، بدلا من السباحة الصعبة فى البرزخ الفاصل بين النقيضين، لكنى لم أفعل شيئا .. أما الزمن فقد أحال أحباب الماضى ، من بعد السهر والمرح والرقص والغناء والضحك والطعام والشراب، الى ذرات حائرة بين الأرض والفراغ ، وأرواح هائمة بين السحب والفضاء. عبارات بعضهم التى

قالوها بثقة قبل موتهم بأيام أحيانا وبساعات أحيانا أخرى ، مازالت ترن أصداؤها فى ذاكرتى ، من نوع:

- **أنا لايمكن أن أهزم أبدا**
- **مسكينة ، لن تستطيع الحياة من بعدى**
- **سأدمره وأقضى على مستقبله**
- **أنا فى غاية من الاطمئنان..هذه الأرض ستكون بحوزتى خلال أيام**

لقد أكدت لى مشاهداتى خلال سيرى بين الأزمنة والأمكنة والناس والأحداث ، أن كثيرا من الأمور قد انقلب عاليها أسفلها فأصبحت صفريتى مكتسبة رغم أنفى، متعللا بأنها قد تكون البرزخ الفاصل بين الضلال والهدى ، وحين أتجاوزها يوما فإنى أكون قد عبرت البرزخ وتحقق لى الوصل ، وصرت انسانا جديدا، فلايمكن بناء انسان جديد بإنسان قديم ، وكان هذا التعلل فى ظنى هو بديل الجنون.

إنى لأعجب كيف أفكر بهذه الكيفية وخيرزانة الشيخ رزق تنهال على كفى الصغير لأنى تخابثت عليه فقرأت الصمدية حين طلب منى أن أسمّع له سورة الرحمان ، كما أعجب كيف فاتنى إدراك أن أجمل ما فى الانسان تطلعه الى المستحيل .

صاح سجين مكبل اليدين متباهيا بضبطه فى قضية سرقة:

- **سرقة آه.. لكن دعارة لا..**

سيدة ذات جسد هزيل وملبس رث وخطوة عرجاء ، تصحب طفلين بيمناها وتحمل رضيعا على كتفها وجنينا فى بطنها. أموت وأعرف ما الذى يضحكها وكيف استطاعت أن تقتنص من الحياة لحظة السعادة هذه. رجل يصفع زوجته فتخلع نعلها وتضربه على وجهه أمام الخلق. سترة الجندى المناوب بالية مكرمشة فى تناقض مدهش مع وقاره الرائع وهو يسألنى:

- **معك سيجارة يا أستاذ ؟**
- **لا أدخن**

وهو ينظر بعينين ثاقبتين الى علبة السجائر البارزة من جيبى قال لى بنفس الوقار مدعيا أنه صدقنى وأن عينيه لم تخترقا علبة السجائر بجيبى وتحصى عددها :

- **طيب. هات اشترى سيجارتين. أنا واقف على لحم بطنى من الصبح**
- **مادمت على لحم بطنك يا أخى اطلب ثمن ساندوتش من باب أولى**

نظر الى باحتقار أكاد أجزم أننى لا أستحقه ، ومضى.

مخبران يقودان سجينا ضخم البنيان ، يوزع شتائمه على أهل الأرض جميعا ، مرددا القول:

- **قتلته لأنه جبان. البلد مابقاش فيها حكومة !**

قرارات حاسمة.قتل.ضرب.سرقة.دعارة.حرية فى ممارسة الاختيارات كافة. أعلن الحاجب عن وصول هيئة المحكمة وفتح باب القاعة.

انضممت بهدوء الى الطابور المتجه الى الداخل. قبل أن أصل الى باب القاعة وجدت نفسى ممغنطا أعبر الطريق المزدحم بعيدا عن مبنى المحكمة متجها الى جحرى الآمن.

****

●فصـــل:

بمرور الزمن أصبح المشى يستغرق معظم يومى. تطورت وسائل التسلية خلال المشى تدريجيا، حتى ثبتت عند حالة معينة من الأخذ والعطاء مع النفس حينا ، ومع طيف الشيخ منصور- كما أتخيله - حينا آخر، ومع الرب فى معظم الأحيان. يدور هذا الحوار فى صمت أحيانا، وبصوت هامس أحيانا أخرى، وأحيانا ترتفع نبرتى الى درجة الصوت المسموع، خاصة حين أغنى، فأصبح فرجة للمارة وهم يبسبسون ويتصعبون على حالى وأنا أحدث نفسى ، متصورين لغفلتهم أنهم العقلاء وأننى المجنون!!.. والحق أن هذا الوضع الغريب يؤكد على وجود مشكلة

ما بشأن وجودى على وجه العموم، طفلا وشابا وكهلا وشيخا، هى الدافع لكل هذا القلق ولكل هذه التساؤلات الحيرى والحوارات الغامضة والأسئلة التى ليس لها من أجوبة..

قلت لنفسى اننى بحاجة الى أن أتعب فى عمل جسمانى أرهق فيه بدنى الى حد الانهاك ، حتى ألقى عن كاهلى تعبى الروحانى المركب الذى يجلب لى الحيرة والعذاب ، فما من شىء فى هذه الدنيا قد جلب لى راحة مستديمة تستقر معها نفسى وتهدأ روحى. كل شىء لاقاعدة له ولا قانون.لاثبات لشىء فيها مهما كان شريف الجوهر كريم العنصر ، مادام مقلبا بين الليل والنهار، معروضا على أحداث الدهر وتعاقب الأعوام.

خطر ببالى – كمجرد خاطر - أن أعمل يوميا بدون أجر فى غسيل دورة مياه أحد المساجد الكبرى مثل مسجد أبى العباس المرسى أو مسجد القائد ابراهيم ، وتنظيفها ومسحها وتلميعها ، تيمنا بما فعل"أبو حامد الغزالى" فى المسجد الأموى بدمشق لمدة أحد عشر عاما بالتمام والكمال أنجز فيهم مجلده العبقرى "إحياء علوم الدين" دون أن يعرفه أو يكتشفه أحد. بالطبع لم أستطع أن أتصور نفسى قائما بهذا العمل المقرف المقزز أبدا ، خاصة وأننى لن أنتج الإحياء – أو حتى أطورها - من جديد ، وأغلب ظنى أننى كنت سأسارع بالفرار بعد دقائق لاتزيد عن أصابع اليد الواحدة بمجرد دخولى الى المراحيض.

ولما كان التغير هو القانون المسيطر على الحياة،فقد اعتدت الاشتباك الدائم معها فى سلسلة متعاقبة من انتصارات وهزائم لاحصر لها. من هنا جاءت فكرة المشى – حسبما أظن – فالمشكلة التى دفعتنى اليه هى مشكلة بينى وبين نفسى من جهة، وبينى وبين الكون من جهة أخرى، وبيننا جميعا وبين القدر من جهة ثالثة. ورغم أننى لا أزيد فى وجودى عن حجم ذرة صغيرة فى الكون ، فإن حيرتى لابد أن تكون كامنة فى ذلك السر الرهيب الذى يجمعنى بالزمن.

للوصول الى السر توجّب أولا أن أنهى حساباتى مع نفسى بحيث تشمل الماضى والحاضر معا ، من خلال الفرجة على الناس وأحوالهم، والبحث فيهم عن معنى لوجودى ومخرج لأزمتى ، حتى ألاقى صاحب السر الأعظم وقد صفا له قلبى تماما بحسم معضلتى الكبرى وحصولى على الراحة الأبدية .

****

●وصـــل:

قادتنى قدماى الى بيتها القديم. البيت مصرى صميم، تسكن الطمأنينة جنباته وتعبق أنسامه برائحة البحر وحيويته ويداعبه رذاذ الموج المنعش . البيت ملاصق لبيت أمى ، والبيتان يواجهان البحر مباشرة. لايفصل بينه وبينهما سوى بضعة أمتار من رمال الأنفوشى الناعمة ، والتى تكاد تختفى تحت هياكل المراكب القديمة والعشش الصغيرة والكراسى وشباك الصيادين ، ومشنات السمك الذى تم اصطياده فى التو من البحر ، وهو يتقافز وسط العشب طلبا للحياة. عن يمين الزقاق مسجد وعن يساره كنيسة والاثنان قديمان قدم الحى نفسه. هى مصادفة بحتة ولاشك فى ذلك،لكنى لاحظت أنها لاتعنى شيئا ذا مغزى عند عامة أهل المنطقة، ولا عجب فى ذلك ، فهؤلاء السواحليين لايعرفون الله من دور العبادة ، وانما يعرفونه من البحر والسمك والسحب والرياح. سمعت حوارا بين رجلين يقفان فى منتصف المسافة بين دورى العبادة:

- لاتتعب نفسك وتتعبنى معك. خلّص
- وما المطلوب؟
- ادفع المعلوم بسرعة قبل أن تفوتنى صلاة العصر
- تطلب رشوة وتخشى على فوت العصر؟!
- لو عندك حل ثان قله لى يا عم الحاج

من الواضح أن بداية الرحلة لاتبشر بالخير..

صلة الرحم هى دافعى الدائم لزيارة أمى العجوز المنهكة بدنيا والمتألقة ذهنيا مهما تقدم بها العمر. حاضرة البديهة حادة اللسان ثاقبة النظرات ساخرة العبارة ميالة الى الضحك والمرح.

تصر على البقاء وحيدة بهذا البيت المتهالك حتى لاتعيش فى بيت أحد من أبنائها أو بناتها ، لا لأن هناك بينها وبينهم خلافات أو مشاكل على الاطلاق، على العكس فكلهم يحبونها ويتوددون اليها ويتنازعون على استضافتها فى بيوتهم، ولاتنقطع زياراتهم اليومية لها على مدى النهار والليل ، وإنما هى تحب الاستقلالية وتأنف أن تكون عالة على أحد مهما بلغت منزلتها عنده، فعزة نفسها فائقة، لاتقبل النزول فى أى الأحوال.

حتى يومنا هذا مازالت كلمتها مسموعة على مستوى الأسرة فى معظم المناسبات والأحداث. لايمكن لخطوبة أحد من أحفادها أو حفيداتها أن تتم دون مشورتها ، بعد أن تقلّب فى العريس أو العروس بعينيها النفاذتين من فوق لتحت وفى كل الاتجاهات الأخرى ، بنظرات تجمع بين الصرامة والحنان، فى محاولة للنفاذ الى ما بتلافيف المخ وأوتار القلب،فتأشيرة الموافقة على الزواج أو رفضه لابد أن تبدأ من عندها ، وسعيد الحظ هو الذى يفلت من حدة لسانها وسخرية تعليقها.

الأصل فى أولى زياراتى – كبداية لرحلتى المرهقة - هو أن أطمئن عليها وألبى طلباتها وألبى مافوق احتياجاتها بالكثير. أتابع بنفسى الاشراف على صحتها بتفاصيلها الدقيقة. كثيرا ما أحضر بصحبة الطبيب ولو لم تكن تشكو من شىء.

لكنى بعد وقت طال أم قصر ، أجد نفسى متطلعا الى بيت فيروز ، حيث العذاب الذى أحبه والحب الذى يعذبنى، بانتظار أن أسمع طرقاتها الخجلى الهامسة على باب الشقة. أستقبلها بفرحة مشوبة بالحزن والحذر والقلق، لأنى أعلم – مثلما تعلم- أن علاقتنا صارت مستحيلة، فالعيون ترقبنا بفضول وتوجس ، وأنا لا أفكر فى الزواج مرة ثانية ، فزوجة واحدة – بحسناتها وسيئاتها - تكفى وتغنى . مستقبلنا معا يخلو من الطمأنينة التى كنا نرتع فيها فى الماضى البعيد بلا حدود.حتى لو توفرت الطمأنينة اليوم وانصرفت عنا العيون ، فالهدف من رحلتى الجديدة كفيل بإنهاء هذه القصة من جذورها تماما.

كنا قد اتفقنا من قبل على ألا نلتقى الا فى شقة أمى ، فذهابى الى فيروز فى بيتها دونه شتى المحاذير. تجىء فيروز بحجة زيارتها والاطمئنان على صحتها وتقديم ماتيسر لها من عون مخلص رغم ذلك ، خاصة فى الأيام التى تكون فيها سلمى بالعامرية، لكنها تجىء لأجلى كما أجىء لأجلها. الغريب أن ذكاء أمى الشديد وإحساسها الرهيف لم ينتبها جيدا الى مابيننا ، وأغلب ظنى أن السبب هو حسن ظنها بكلينا. أحيانا أشك فى ذلك وأتصور أنها تفعل ذلك عن عمد كما لو كانت تعد لنا كمينا.

تقوم سلمى على رعاية أمى. تحملها بحب وإخلاص الى عربتها المتحركة وتذهب بها الى دورة المياه وما الى ذلك. هى أعرابية تفتقر الى لمحة واحدة من الجمال غير أنها جميلة الروح والخلق. كانت قد قبلت الزواج بعجوز فى عمر أبيها حتى تضمن السكن والاستقرار. لم تعبأ بشراهته فى الاستيلاء على كل ما تحصل عليه من مال أولا بأول ، فضلا عن أنه كان يجبرها على غير ارادتها أن تقترض له منا بعضا من المال من حين لآخر دون سداده.

رغم اقترابها من الخمسين الا أنها قوية عفية قادرة على خدمة أمى على أكمل وجه وبأعلى درجات الاتقان ، بما فى ذلك الرقص لها أحيانا على أنغام الراديو حين يكون مزاج الحاجّة رائقا. لذلك فأنا لا أبخل عليها بشىء.

حاولت مرة حمل أمى لأضعها على مقعدها فكدت أقع بها وكاد ظهرى ينقصم. قال ساخرة وبسرعة البرق:

- ياعينى على الرجالة

تعجبت كيف تحملها سلمى بيسر وسهولة كما لو كانت تحمل طفلة صغيرة، رغم سمنتها الزائدة ووزنها الثقيل، فضلا عن أنها تهدهدها كطفلة بالفعل والقول ، حتى أن الحاجّة لم تعد تستطيع الاستغناء عنها.مرة قالت لى:

- سلمى عندى هى نورعينى

مازالت الحاجه فردوس قادرة على تناول الطعام بنفسها رغم الشلل الرعاش الذى أصابها مؤخرا ، وأنا أجد متعة شديدة فى وضع الطعام بيدى فى فمها ، غير أن الأعرابية هى أفضل من يتعامل معها فى مسألة الاطعام، وخير من تقبل منه الطعام بوضعه فى فمها مباشرة .

ويخترق السؤال حجب المنطق الطبيعى للأشياء. ما الذى أريده من فيروز، وما الذى تريده فيروز منى؟ . فى الماضى كان بيننا ما كان ، أما الآن فمن منا يستطيع الاجابة بصراحة عن هذا السؤال؟.. ترملت فيروز فى سن مبكرة ولم تتزوج بعد ذلك. جمالها ربانى طبيعى بغير تجميل. جسدها تحفة فى تناسقه. عيناها سوداوتان فى بحر من البياض الشاهق. شعرها فى لون عينيها. خطوتها غاية فى الرشاقة، تتغنى بساقين مرتويتين. ملبسها شديد الأناقة حتى لو تواضعت قيمته الشرائية. كل ما فى الأمر أنها تتمتع بدرجة عالية من الذوق الرفيع.. مالك بها يا أخى ومالك بخطوتها وعينيها وساقيها ، وأنت بسبيلك الى أن تخلى نفسك من كل هذه الأشياء المرهقة؟!..

تعمل محاسبة بإحدى الشركات الغذائية. بعد انتهاء العمل لاتذهب الى شقتها الا بعد أن تطل على الحاجه فردوس لعلها تكون بحاجة الى شىء ما. الناس فى الأحياء الشعبية يحبون كثرة الكلام عن شئون غيرهم ، وهكذا الحال فى الأنفوشى بالطبع ، فليس من السهل عليهم أن يتركوا فتاة جميلة تسكن بمفردها فى شقة بالحى دون أن يلوكوا سيرتها. الغريب فى الأمر أنهم يتكلمون كما يشاءون، ولكن عند فيروز يتوقف الكلام وتمتنع الغيبة والنميمة. قد يرجع ذلك الى تعاطفهم معها بعد الحادثة المشئومة التى أودت بحياة والديها. لكن ما من شك فى أن هناك سبب غامض آخر يدعوهم الى ذلك، فاهتمامها بشئون جيرانها واحترامها لهم وإحضار متطلباتهم الغذائية من شركتها كلما أمكنها ذلك ، دون أن يطلب منها أحد شيئا ،،، ليست كلها أسباب كافية للصمت وقتل الفضول ، خاصة اذا ما ظهر فى الصورة رجل!!.

السبب الذى تعتقد فيه الحاجه فردوس هو أن فيروز تعيش فى رعاية الشيخ منصور وكنفه ، ولولاه لما تركوها فى حالها. لكن فيروز لم ترى الشيخ منصور ولا أظن أنها سوف تراه.

فى هذه المرحلة من علاقتنا ، تعتبرنى فيروز أستاذها الروحى والعقلى، وترى فى شخصى الكائن الوحيد الذى بمقدوره أن يعوضها- لمجرد وجوده فى حياتها - عن والديها وعن شقيقها الوحيد المهاجر، وعن أشياء أخرى كثيرة تمنتها لكن الأقدار حرمتها منها.

كل هذه مبررات تخدع نفسك بها رغم صدق مشاعر فيروز. لو كنت جادا مخلصا فى مسعاك نحو الحقيقة التى تنشدها، فاغسل يديك من فيروز وغيرها من النساء اللاتى لم تقطع صلتك بهن بعد ، وكأن عينا لك فى الجنة والأخرى فى النار. لو لم تفعل ذلك فإنك تضيع وقتك وعمرك بلا طائل، وتروح ضحية الشعور الأبدى بالذنب بدرجة مرضية كفيلة بتحطيم حياتك.

كانت قد اختفت مع أسرتها سنين طويلة خارج مصر قبل أن تعود بمفردها. فوجئت بها يوما جالسة مع أمى فى البلكون الأرضى للشقة ، تناول الأطفال ماتجود به الحاجّة عليهم من فواكه وحلويات وأطعمة. كانت تناول طفلا عنقودا من العنب. وضعه بسرعة فى جيبه ثم قال للحاجة بعشم عجيب:

- ألاقى عندك فاكهة ثانية ياحاجه فردوس ربنا يخليكى ؟

انفجرنا فى الضحك وتفجر ماضينا أمام عيوننا منذرا بالخطر. أدركت أنها تحب أمى كثيرا ، وأن أمى هى الأخرى تبادلها نفس الحب ، وتكثر من تقديم الهدايا اليها كما لو كانت احدى حفيداتها. حكت لى طويلا عن فترة سفر الأسرة ووفاة الوالدين وهجرة الشقيق. تعجبنى عقليتها المتوهجة وروحها المرحة وقدرتها الفائقة على العطاء بلا مقابل، ويدهشنى استسلامها للقدر فى إيمان ، بلا تذمر أو تمرد .

سلمى غائبة ، وشخير الحاجه فردوس يتصاعد ، وهى على علم بوجود فردوس معى قبل أن تروح فى النوم. لاشىء يحدث على الاطلاق، فلا أنا أراود فردوس عن نفسها ، ولا هى تحاول اغرائى أو استمالتى بشكل من الأشكال لنعود الى ما كنا عليه فيما مضى ،وكأنها على دراية

تامة بما يعتمل بداخلى من رغبة فى الخلاص. لم تعد المسألة تتجاوز حدود تلامس الأيدى للمصافحة عند اللقاء والوداع. أصبح الرجوع الى الوراء مستحيلا بكل المقاييس.

- هل ترغبين فى؟
- نعم بالطبع
- وما الذى يمنعك؟
- وما الذى يمنعك أنت الآخر؟

ترددت كثيرا قبل أن أقترب منها ، وقلت فى شىء من العصبية:

- يجب أن نضع حدا
- كما شئت
- فلتكن نهاية علاقتنا اليوم
- ولماذا تحرمنى من الائتناس بروحك والارتكان الى حمايتك دون ارتكاب معصية ؟
- لأن أعصابى تعبت ، فنحن بشر من لحم ودم وأعصاب
- أنت تخاف أن تقدم وأنا أخاف أن أستجيب
- لم أعد أحتمل
- لو كان يريحك أن أعطيك نفسى من جديد ، فلن أعبأ بشىء حتى ترضى

كان بيننا وبين الانهيار شعرة من الزمن وقطرة من الارادة وهمسة من الشعور ، فآثرت السلامة وهربت قبل تأجج المشاعر وغياب العقل.

ما حدث يعد بمثابة خطوة تدريبية ناجحة كبداية. تعمدت ألا أزور أمى بعد ذلك الا فى وجود سلمى ، حرصا على عدم الغرق فى المسافة الواصلة الفاصلة بين رغبتى فى متعة محرمة ، وحرصى على ارضاء خالقى الذى ألهمنى الفجور والتقوى مجتمعين معا. لم أجد حلا للمسألة غير أن أرقص بهستيرية فى غرفة النوم بحماس على موسيقا زوربا اليونانى - التى أحتفظ بتسجيلها معى على جهازى الصغير أينما ذهبت - تحديا للفشل وخيبة الأمل ، وإصرارا على خلق تصالح فى داخلى بين دينى ودنياى. تجربتى مع فيروز هى أولى المحطات فى طريقى للوصول بملكاتى الى درجة من التجانس والتناغم ، كبديل عن التنافر والتشتت والتذبذب بين النقائض.

هاقد وضعت نفسك فى قلب المواجهة ، وتلك شجاعة تحسب لك. لكن ما النتيجة؟..هل يمكنك القول أنك تحررت من الرغبة فى أول اختبار تواجهه، وغسلت يديك من الموضوع واتجهت الى الله بالقلب الصافى الذى تنشده؟. الحق أنك عاجز عن الاجابة ، لكن الذى لاشك فيه أنك خطوت خطوة فى طريق المحاولة الطويل ، لك أن تشرف باجتيازها ، فبغير التلوين لايكون التمكين وبغير الابتلاء لايكون الولاء . عليك الآن بتكرار المحاولة مرة ومرات فيما ستواجه من تجارب ، فربما كانت النتيجة التراكمية واعدة، ولتعلم منذ البداية أن المسألة لن تكون سهلة على الاطلاق ، كما لم تكن سهلة من قبل.

حسنا فعل بى الشيخ منصور- الشبيه وجهه الملائكى بوجه السيد المسيح – فهأنا أمتثل لارادته بتجاهل السير المنطقى للزمن من ماض الى حاضر الى مستقبل تجاهلا تاما، بحيث يتساوى أن أكون طفلا أو صبيا أو شيخا فى أى موقف حياتى أعبر به خلال رحلة المشى، سواء بالمواجهة المباشرة أو بتداعى الذكريات ، أو من خلال شىء أراه يذكرنى بشىء لا أراه.

أرى الآن فى طريقى عاملا من عمال النظافة بالبلدية يكنس الشارع. وجهه شبيه بوجه الهدهد. رؤيتى له ذكرتنى على الفور بقبلة دافئة تبادلتها مع صديقة لى فى عربتها بمحطة الزقازيق ، كما ذكرتنى بالموسيقار محمد القصبجى المحنط فى وله خلف أم كلثوم ،مخفيا هيامه بها خلف نظارته السوداء ، محتضنا عوده منصهرا فيه متوحدا معه ، وهى تغنى الأطلال. يكاد قلبى يسقط هلعا أمام ضربات دفوف القدر المتسارعة الرهيبة فى الثوانى الأخيرة من ختام اللحن حيث لامفر من الفراق اللعين. حين أتأمل آلاف المصفقين المبتهجين من جمهور أم كلثوم ، يصيبنى الحزن لأن معظمهم قد مات بالتأكيد وعلى رأسهم عازف العود

القدير.رغم ذلك فالجميع موجودون بعد مرور كل هذا الزمن على شريط مرئى ، وأنا موجود معهم أعيش لحظات المتعة والمراقبة والتأمل والشرود فى الذكريات، فلا مهرب من مرور الزمن وفوات العمر..سأبذل ما بوسعى من حيل حتى ألغى هذا البعد من أفكارى التى تأكلنى وأنا ماش. ميزة الزمن أنه صامت لايحدث ضجيجا ، لكنه لا يعير لمخلوق أدنى اهتمام.

عن يمينى الآن فى أحد أزقة بحرى "اسطبل" لمبيت الخيول اسم صاحبه "أبو جاموس". يبدو أنه اكتشف – بالصدفة - فى نفس لحظة مرورى من أمامه ، أنه أخطأ خطأ جسيما حين شارك"حسن بزّو" فى شراء هذا الاصطبل منذ عدة أعوام، لأنى سمعته ، عقب خلاف مالى بينهما ، يقول له بمرارة رائعة:

- **صدقنى ياحسن يابزّو ياخويا. الناس كلهم أولاد وسخة، وأنا أولهم**

****

جاءنى هاتف الشيخ منصور منبعثا من طيف الحاجه فردوس محذرا:
"لاتسوّف أكثر من ذلك ياعادل فإن أكثر صياح أهل النار من التسويف. اعلم أن فرصة التوبة مازالت مواتية أمامك مادمت حيا ، ومهما غرقت فى وهم الغفلة وزخرف الدنيا ، فسوف تسمع ان عدت من يقول لك:

- **أحببتنا فأحببناك، وتركتنا فتركناك ، وعصيتنا فأمهلناك ، وإن رجعت الينا قبلناك. لاتستهن بستر الله على ما أتيته من فسق وإلا فضحك أمام العالمين. وصيتى الأولى لك هى أن تصب لنفسك من إبريق العلم ماتستطيع من حلاوة ، ومن ابريق الصبر ماتستطيع من مرارة، وعندما يمتزجان فى إناء قلبك ، سيأتيك ما تبحث عنه لحد عندك".**

****

-2-

● فصـل:

تحيرت فى حب"آسيا" كثيرا حتى تشككت فى كونـه حبا، فالامـام ابن حزم يقول ان للحب علامات يقفوها الفطن ويهتدى اليها الذكى ، منها ادمان النظر الى المحبوب ، ومنهـا الاقبـال بالحديث، ومنهـا الاسراع بالسير نحو المكـان الـذى يكون بـه، ومنهـا اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه، أو عند سماع اسمه فجأة، وغيرها من علامـات لاحصر لها.. وأنا لم ألحظ وجود أى من هذه العلامات عليها ، بل ان هناك مسافة خادعة بين وجههـا الحقيقى ووجهها القناع ، تلعب بها علىّ بالغموض حينـا وبالصمت حينـا آخر ، وكأنهـا رغم رغبتها الملحة فى الارتباط بى تستكثر علىّ أن تمنحنى ولـو همسة تعبر بهـا عن مشاعرها الحقيقية رغم تأكيدى بكل السبل على حبى لها. كنت واثقا أن الكبر دافعها لذلك وليس الحيـاء العذرى. لست أدرى لمـاذا يبتلينـى الرب بتجـارب حب كل منهـا أصعب من الأخرى؟.. آسيا تقول ثم تنكر. تقرر ثم تتراجع. تقترب ثم تبتعد.طباع النسـاء لغز عسير الحل.يقول أفلاطون ان عقول النساء فى أسافلهن وعقول الرجال فى أدمغتهم. هذا كلام غير صحيح وبرهانى هو آسيا بعقلها الذى يتحكم فى عاطفتها كما تشاء. لست أدرى كيف تصورت أن الرجل لايمكن اصطياده الا بطريقة التمنّع الخبيثة ، والتى لاترى فى الصدق والوضوح خيرا ، وإنمـا تـرى الخير كله فى المنطقة المائعة بين القناع المصطنع والوجه الحقيقى، كحالى المائع بين الدنيا والآخرة.

****

لم أكن قد بلغت درجة الإدمان للمشى حين توجهت الى أقرب بحيرة لمدينتى وهى بحيرة "إدكو". كنت أجهل ذلك السر الالهى السابح فى المنطقة التى تصل وتفصل فى الوقت ذاتـه بين البحر والبحيرة، أو بين المالح والحلو. من ابريق الحلو شربت رغبة جارفة فى التعرف على هذه المعلومات الطبيعية.

عند المنطقة التى يمتزج فيها النهر بالبحر ، والتى يسميها الصيادون ب"البوغاز" تمنيت أن يتلاشى الفاصل بين وجه"آسيا" وقناعها ، وبين دنياى وآخرتى. التقيت بصياد عجوز قرأت فى معالم وجهه الاستعداد لتحمل الحديث معى، بينما كان يطرح شبكته فى الماء ممسكا ببدايتها، وقد جسد الزمن على تضاريس وجهه وخطوطه الغليظة المتشابكة كل معانى الرضا والصبر، وكانه شرب حتى الثمالة من إبريق المر، بعد طول جدل مع متناقضات الحياة.. ولماذا ألوم آسيا على سباحتها فى البرزخ وأنا عاشق له؟!!..

قـال لـى الصـياد وكأنـه يحـدث نفسـه بمعلومـة يعرفهـا كـل أهـالى إدكـو والاسـكندرية ، والسيجارة مدلاة من فمه وقد بلل رذاذ الموج جزءا كبيرا منها:

- هنا يعيش سمك الحلو مع سمك المالح

تناثرت حبات المياه على وجهينا بعد ارتطام موجة بالصخرة التى نجلس عليها. شردت قليلا أسترجع ما كنا ندرسه فى علم المعادن عن الطبقة الوسطى العازلة بين المعدن وطلائه المزجج ، وهى التى تشد الطلاء الى المعدن كما تشد المعدن الى الطلاء حتى يلتصقان تماما. لم أعاود انتباهى الى الصياد الا حين سمعته يقول فى خشوع وتوقير:

- ربنا يقول"مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لايبغيان"

قلت بانبهار تلقائى:

- سبحانه جل شأنه

تجسدت العلاقة بين الماء والشمس والهواء والشبكة والسمك والرزق والحظ والحياة والموت جميعا على الكرمشات الجميلة تحت عينيه بتجاعيدها المتداخلة فى شكل هندسى ربانى بديع.

عاودنى الشرود حين انتقلت من عالم البحار الى عالم المعادن الى عالم الوجوه البشرية التى تفنن الخالق فى ابداعها على أكمل صورة، فانتبهت من جديد الى مغزى نظرات آسيا التى تأكد

لى الآن- وأنا أتأمل وجه الصياد العجوز – أنها لاتختلف فى جوهرها عن طبيعة المسافة القابعة بين العذب والمالح، أو بين المعدن وطلائه الزجاجى، تلك الطبقة التى تشتمل عناصرها المكونة لها على نسب لابد أن تتوازن فيها خواص المعدن مع خواص الطلاء طبيعيا وكيمائيا، وإلا تشقق الطلاء وانفصل عن المعدن وتركه عاريا عرضة للتأكسد والصدأ والتآكل، وسبحان من له الملك والدوام. رغم ذلك فهذه الطبقة ليست من فصيلة المعدن ولا من فصيلة الطلاء.

لو لم ألتق بهذا الوجه النحاسى المريح ، لما تبين لى كم أنا غرير ساذج يسيل لعابه وتنفتح مغاليق قلبه على مصاريعها حين تمن عليه محبوبته بنظرة ماهى الا وسط برزخى بين المعدن والطلاء، وبين الحلو والمالح، وبين الحلم والواقع. يقول الصياد:

- كم من أساتذة من الجامعات جاءوا الى هنا وحللوا المياه ، فعادوا مبهورين بالسر الالهى!
- كيف ؟
- المسافة لاتتجاوز أمتارا قليلة يسبقها المالح ويليها الحلو، وأما التركيز فلا يتغير فى المنتصف!

****

المسافة الواقعة بين وجه آسيا وقناعها كانت خافية عن عين قلبى فلم لأحسب لوجودها حسابا،لأن المساحة الواقعة بين نواياى وأفعالى لاتزيد عن الصفر المربع ، كحال هذا الصياد كما أجزم بذلك ، ومصباح الأعمى لايضىء الا لغيره.

خيل الى أنها قد جنت حين فاجأتنى مرة بقولها وهى تصب على وجهى نظراتها البرزخية:

- أحبـــك

إما أنها تخدعنى ، وإما أنها تعطفت بنسف الصخور المتراكمة عندها بين الزيف والحقيقة ، وبين العقل والقلب. ربما توصلت الى أن أسلوبها البرزخى القديم لن يجلسها يوما الى جوارى بطرحة الزفاف، فقررت أن تتبع أسلوبا آخر لابد أن يجد عندى القبول والترحيب ،فذكاؤها الحاد يجعلها تنفذ بسهولة الى أعماقى المكشوفة أبدا.

اندفعت اليها بلهفة عمرى كله.. بالعمر المتبقى الذى لن يكتب له البقاء قبل ارتشاف رحيق القبلة الأولى. بعينى طفل برىء يرى الدنيا لأول مرة، ولايعرف الضلال ولا الهدى. بقلب شاب لايخطر الموت بفكره. اقتربت بوجهى من وجهها حتى كدت ألامس تفاحة وردية صابحة. كانت المسافة بين جبهتينا لحنا غامضا يعزفه القدر. تسلل أريجها الى أنفى فكانت أنفاسها نبض الحياة منذ بدء الخليقة، وعندما اقتربت المسافة بيننا ، كانت الدنيا بأسرها لقاء حافلا يدعو الى العناق، وكانت الآخرة امتدادا لها ، فكانت الجنة وكانت النار ، وكان التاريخ والتراث والدين والأعراف والأخلاق، والأزل والأبد ، ونسمة صيف لافحة وترنيمة طير أخضر رقيق.. ذابوا جميعا فى عناق فى تلك المساحة الفاصلة بين وجنتينا والواصلة بين أشواقنا، والتى كلما انحسرت أشعلت حرارة الشوق، فاستحال الانحسار الى اتساع لانهاية له..كون سرمدى يعج بأسرار الخلق والبدء والانتهاء والوجود والعدم، كان يشغل تلك المسافة زمانا ومكانا. ما كان أروع أن يذوب عمرى فى عمرها فى لحظة هى رشفة من رضاب الحب المسكر..أن تهدر شلالات الذكريات بين أعطاف ذلك التماس الرقيق الشفيف الحانى، وأن يتكثف الوجود كله فى لحظة ملهمة تنصهر فيها الأسرار والمعانى، وكل مايقال وما لايقال ، وما يدرك وما لايدرك بحرارة ذلك اللقاء.

وفى اللحظة التى تلاشت فيها المسافة واقتربت الشفاه ، انتصب كفها حاجزا عنيدا أخفت به خدها الوردى الملتهب، لتحول دون تحقق لحظة الانتشاء المقدسة !!!

****

البحر ثائر أمامى ، أما البحيرة فهادئة، والسر قابع فى المنطقة المائجة بينهما. تستمع مسحورة الى فرحتى بتصريحها وأنا أسكب عليها – بلعابى السائل الخائب –عطورا من الغزل تستقبلها فى نشوة وشبق. يذوب الأبيض فى الأسود ليصيرا معا الى الرمادى. يا الهى!..كلما

أمعنت النظر فى وجه الصياد العجوز انهالت علىّ الرؤى وسقطت الحجب وتوالى الكشف عن بعض الحقيقة المستترة. انها تستمتع فى سادية بذوبانى فى روحها الجليدية بين الملح الأجاج الفاصل ، والعذب الفرات الواصل. تتفنن فى الحرص والحذر والريبة والتوجس رغم تصريحها المنفلت كسقطة لسان لاتستعاد.

تسيطر وتقود وتتحكم من منطقة البرزخ. لو أنها أقدمت أو تراجعت شبرا واحدا لأحبتنى مثلما أحببتها ، ولأطلقت قلبها من إسار عقلها الفولاذى ، لكنها لاتريد ، وانما تصر على السباحة المتعثرة فى هذه المنطقة بلا طمأنينة..مدد ياسيدى المرسى يابو العباس مـــدد.

وضعت كفى فى قلب منطقة امتزاج البحر بالبحيرة، وقلبت بها المياه بقوة ومرح. صنعت منها دوامات ودفعت بها الماء فى وجه الفراغ ، وقادنى الصياد الى منزله الملاصق للمقابر. ما أعجب ما يأتى به المشى من مفارقات. ان عبثية الحياة قد تجعل من مصادفة لقاء غير منتظر سببا للتعاسة أو السعادة. ربما لاتكون المصادفة عبثية وإنما تدبير قدرى يعلمه صاحب الأقدار وحده ، تتغير به أحوال ومصائر.

تصاعدت رائحة الشواء فى فضاء المقابر. المسافة بين منزله ومقبرة أبيه لاتتجاوز أمتارا قليلة ، تضم بعض البيوت والمقابر المتداخلة معها، ولحم السمك شديد البياض شهى المذاق يذكرنى بطعام الجنة!.. وهل سبق لك زيارتها يا خفيف؟..

كثيرا ما يأتى العجوز فى الليل ليتحدث مع أبيه عن أحوال دنياه، حتى أنه يكاد يسمع صوته كلمة بكلمة ، ولا جدوى من البحث عن حدود فاصلة بين العقل والجنون، وبين الحزن والفرح، وبين الممكن والمستحيل ،وبين الدنيا والآخرة ، وبين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله حق التوكل، فكلها حدود ضبابية عسيرة على الادراك بغير مجاهدة، ومن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب، ومن هرب من البلاء لايصل الى باب الولاء ، فليس هناك تمكين بغير ابتلاء.. وأنا أصدق ما يقوله هذا الرجل لى تماما ، وكأننى أراه يحدث أباه أمامى.

أشعل نارجيلته فبرقت جمرات الفحم بلونها الأحمر الذى يشع بالدفء والحرارة ووهج المؤانسة تحت ضوء القمر. قال وهو ينفث سحابة كثيفة من دخان المعسل ذى الرائحة الجميلة الناتجة عن احتراق العسل الممتزج بالتوباك:

- لم أشعر يوما أنه مات
- كيف؟!
- هناك وصل دائم بيننا لاتفصله مسافات ولا أزمنة

رائحة الشاى تتخلل سحب أوهامى وأوهام الصياد وكل الذين عاشوا سعداء بأوهامهم دون حرص أو حذر. كل ما فى الأمر أنهم أطلقوا لأرواحهم العنان بلا عائق فى فضاء الكون العظيم.. ويرتشف الرجل الشاى بصوت مسموع. يستحلب لذته فى أزيز حاد يصل الى مسامعى ويقول:

- اللهم احفظنا من نار وقودها الناس والحجارة

****

كان كفها المتصلب يفصل بين وجهى ووجهها كحد سيف يرتعش بشدة، ويضيق فؤادها بالسر الذى لم أتوصل اليه فيها وفى نفسى ، فيتفجر فى المسافة المتلاشية بيننا لحن القدر بقوة رعدية تحيل العناق الى حرب قاسية يتأجج فيها الصراع بين النار والجنة والشياطين والملائكة..

- لا....

شهقت بها وقد تقطعت أنفاسها النارية المتهدجة فى الهوة السحيقة الفاصلة بين وعيها وقلبها ، وقد أسفرت الحرب عن تمزيق روحها الى شطرين تفصل بينهما تلك الهوة ممثلة فى الكف المتصلب الفاصل بيننا.

لم أحتمل أن تلمح عيناى ذلك الفزع الغريب فى عينيها ، فتراجعت فى نبل اشفاقا عليها.ابتعدت لأربت على ظهرها مكتفيا بتقبيل يدها ودموعى متحجرة فى عينى ، وكنت أرى النجوم تتساقط امامى والأقمار وأنا عاجز عن التقاطها.

وتحثنى رسالة الشيخ منصور الأولى على التوبة فأقول لآسيا بحسم:
- وداعا
ومالى أحمل الزمن على كاهلى ولا أدعه يتوحد فى يسر؟..كم أتمنى أن يصير حالى كحال ذلك الذى وقف يوما أمام الزمن وقال له :
- قف أيها الزمن..ما أجملك !
وسألت نفسى فى حيرة:
- هل سيكون هناك زمن فى الجنة ؟

****

● وصل:

لم أذق طعم النوم لعدة أيام متوالية. كيف يتجاهلوننى ويحضرون رئيسا للشركة من الأرياف لمجرد أنه بلديات الوزير؟..رئيس المؤسسة ينافقه رغم علمه بأننى الأحق والأجدر والأكثر فائدة للعمل والعاملين. تمت الطبخة فى خفاء وعلى عجل ولم يبق الا اضافة الملح والتوابل ليصدر القرار الوزارى بأن يرأس الشركة رجل عديم الخبرة سىء السمعة، جىء به من مهنة لا علاقة لها بالصناعة على الاطلاق.
قررت أن أتماسك فى مواجهة ظلم صارخ وعدوان وقح. تبين لى أن أحدا من المسبحين بحمدى والشاكرين دوما لأفضالى عليهم ، لم يقف بجانبى. كالعادة اندهشت رغم خبرتى بطباع البشر وقلة تعويلى عليهم. لست أعرف الى متى سأظل طفلا.
قابلت المرشح نفسه. أوضحت له أنه لايستطيع ادارة الشركة الا صاحب خبرة طويلة بالصناعة. أما وإنه خريج آداب قسم تاريخ ، فإن عاقبة توليه رئاسة الشركة سوف تكون خرابا على الجميع.
عاملنى بوقاحة الأجوف المستند الى مركز السلطة والقوة. لم تكن هناك فائدة عملية من ضربه ، فلم أضربه. المشهد نفسه يتكرر فى الدنيا كل يوم وكل دقيقة بصور مختلفة، أما النهاية التى يغفل عنها الجميع فدائما واحدة. حينما حاول التلطف معى بعد أن بادلته الجفاء بجفاء قال لى بابتسامة صفراء مترعة بالنهم:
- لو كنت مكانى لما تركت هذه الفرصة تضيع منك
الكل يتعامل مع الحياة بنظرية "اخطف واجرى". علمنا مدرس فى الصبا أن كل من يعتقد أنه الذكى الوحيد ، عليه أن يفهم أنه حمار.
طلبت مقابلة رئيس المؤسسة. استقبلنى بحفاوة، وكانت ابتسامته الزائفة المصنوعة ، مفضوحة أمام عينى. قال وهو يعبث بلحيته الطويلة العريضة ذات الشعب الثلاث غير المهذبة:
- لو كنت جالسا على مقعدى ، لما أمكنك أن تفعل غير مافعلت
- سيدى ، لو لم يكن للكفاءة والسمعة والتخصص أهمية ، أفلا يكون هناك عدل؟
- البلد كلها غارقة فى الظلم ، فلا تحملنى التبعة وحدى ، الله يرضى عنك !
أظرف ما فى هؤلاء المنافقين زجّهم باسم الله فى كل فعل وتصرف وكأنه – استغفر الله - أحد أقاربهم!!..
طلبت مقابلة الوزير. سألنى مدير مكتبه:
- بخصوص ماذا؟
شرحت له موجزا للمشكلة. دخل وخرج. قال مدعيا الانشغال بأوراق متناثرة أمامه:
- معالى الوزير فوض رئيس المؤسسة بالتصرف وانتهى الأمر
عاود ادعاء الانشغال فأدركت أنه لايعرف ولم يعتد أن يحترم نفسه. قلت له بلا تفكير أو انفعال
- شكرا ياكلاب !
فتح الرجل فمه مذهولا. رأيته وقد تحول أمامى الى ضفدعة. لم يجد الوقت ليفعل أو يقول شيئا فقد غادرت مكتبه فى ثبات وهدوء على الفور. تمنيت أن تقوم القيامة ونموت جميعا فلا يكون

هناك تنافس ولا تكون هناك منازعات على الرئاسة. فى المساء بلغ بى الغيظ مداه. شعورى بالقهر كاد يقتلنى. لم أجد ملاذا ألجأ اليه سوى الحق. سألته متوسلا متذللا أن ينصفنى وهو العدل. ألقيت عليه بالحمل كله. لأول مرة أجرب لذة التوكل الحقيقى.

فى الصباح أبلغونى ان رئيس المؤسسة قد توفى ، وأن الرئيس الجديد قرر تعيينى رئيسا للشركة بعد أن ألغى القرار القديم. أهو عبث الأقدار أم ماذا؟..وماذا لو لم يمت هذا الرجل؟ ولماذا مات الآن؟ تصورت أننى أنا الذى مت وليس رئيس المؤسسة ، وبالتالى فلا معنى لهذه اللهفة المحمومة على الرئاسة والكل الى زوال. حدث ذلك فى نفس التوقيت الذى بدأت أبحث فيه لنفسى عن طريق الى الله دون أن أتنازل عن عشقى للحياة. لذلك أصاب الذهول أنصارى وأعدائى حين علموا أننى قدمت استقالتى من الشركة. فعلت ذلك ضمن خطتى لتصفية أعمالى الوظيفية نهائيا ، والتجارية جزئيا لإرضاء شركائى من جهة ولضمان دخل معقول من جهة أخرى ، حتى أتفرغ للمشى.

****

● فصل:

أمشى الى نهاية المنطّ ، وهو رصيف شديد القدم. زلق لنمو الأعشاب وحشائش البحر اللزجة عليه. يمتد بين رمال الشاطىء وحوالى ثلاثين مترا من البحر. ينطّ من فوقه الصبية الى الماء مستعرضين مهاراتهم البدنية فى القفز الى مسافات بعيدة. معى صبية كثيرون.كلنا نمسك ببوصنا وصنانيرنا وبأكياس الطعم الذى نصطاد به سمك المرمار والشراغيش والبطاطه والغلنفيش ونتفرج على مؤخرات البنات. أحيانا كانت تأتى هجمات من سمك المحرات فكانت صنارتى تلتقطه بكثرة عن أقرانى . كنت ألقيه فى البحر مرة أخرى بعد استخلاصه من الصنارة حتى يعود الى حياته الطبيعية دونا عن أصناف السمك الأخرى ودون أن أعرف السبب فى ذلك.

المحرات- غير بقية الأسماك – كان يظل قادرا على البقاء حيّا بعيدا عن الماء لفترة طويلة، حتى ولو لم ينتفض كثيرا فى نزعه الأخير. بعد إلقائه فى البحر كنت ألقى بنفسى وراءه لأتأمل فرحته بالعودة الى الحياة ولكى أستعرض لرفاقى قدرتى على العوم فى الغريق.

لامتنى أمى وحذرتنى من تكرار هذا الفعل مرة أخرى ، فمن الأولى بى أن أحضر هذا السمك ، فهو رزق لايصح البطر عليه، لتقليه لنا فى البيت، فلحمه طرى وطعمه شهى رغم أن به قليلا من المرارة اللذيذة ، كانت تعادلها أمى بالكمّون والليمون. طالما حذرتنى من العوم فى الغريق ، حيث لايوجد طول يسمح للعائم بالوقوف على قدميه فى الماء، وانما يشترط أن يكون سباحا ماهرا حتى لاتسحبه الدوامات ، كما حدث مع العديد من الأصدقاء.

كنت أتمادى فى مخالفة تحذيرات أمى بأن أبحث عن مناطق القيعان الطينية العميقة بعيدا عن المنط ، حتى أستخلص منها قواقع الجندوفلى من بين الحشائش الراسخة بجذورها فى القاع ، ثم أخرج بحصيلتى الى الشاطىء ، وأفتح الجندوفلى بمطواة صغيرة فأغسله بماء البحر وآكله نيئا بشراهة غير عادية وأنا مبهور بلون لحمه الأبيض الجميل ذى النقطة السوداء. مازال الجندوفلى عندى رمزا للحياة والحيوية ولمشاهدة لمحة عبقرية من تجليات عظمة الخالق فى خلقه.

****

" هتف بى الشيخ منصور قائلا إن للصبر درجات أولها الصبر فى الله عند نزول البلية، ثم الصبر لله عند الوقوف مع البلاء بحسن الأدب ، ثم الصبر مع الله بالثبات على أحكام الكتاب والسنة وتلقى البلاء بالرحب والسعة دون تذمر أو شكوى للخلق ، فكيف بشتكى منه اليهم وهم لاحول لهم ولاقوة وهو الرحمن الرحيم؟.. وأخيرا الصبر عند الله وهو الأشق، فهو لايكون الا حين تحتجب أنوار الذات الالهية، فلا تتجلى لقلوب المتجردين من أهل الطريق ، فيمسون فى وحشة وقبض لانظير لهما".

وقال لى:

"اعلـم ياعـادل يـابن فـردوس أن الصـبر خاصـية تميـز الإنـس عـن البهـائم والملائكة، الأولى لنقصانها والثانية لكمالها ، واعلـم أنـه لأنـك أرضـى مخلـوق من التراب ، فإن كل حظك الخاص من هذا التراب هو بدنك فقط .

ان يمـين صـفرك فائـت لاتـدارك لـه، ويسـاره مسـتقبل مقـدر لامفـر منـه ، فتذبذبك بين اليمين واليسار مضيعة لعمرك ، ولامفر أمامك أو خلفك من اتخاذ موقف وسـطى ايجـابى متـوازن ، لاتلفيقـى ولا تـوفيقى ، يقـوم علـى العـدل ويتلاءم مع فطرتك الانسـانية..هذا ان كنـت مازلـت تبحـث صـادقا مخلصـا عـن منزلة عند ربك، فالدنيا لمن تركها ، والآخرة لمن طلبها."

****

-3-

● وصـل:

أنا لاأريد أن أريد شيئا. فلتذهب الارادة الى الجحيم ، وليت ذهابها يكون الى غير رجعة ، بعد أن كشفت لى الأيام عن لاجدواها. سبق أن أردت كثيرا وتحقق لى ما أردت. سبق أن أردت كثيرا ولم أفلح فى تحقيق ما أردت. على طبق من ذهب جاءتنى منح ونفحات وأفراح لم أسع اليها ولم أرد أن أريدها ، وبعضها لم ترد على خاطرى و لم أحلم بها أو أتصور حدوثها فى أقصى شطحات خيالى ، بينما طفحت الدم وبذلت من كرامتى وأرقت ماء وجهى لتحقيق ارادات محددة ، بذلت لأجلها الغالى والرخيص ، وفعلت لبلوغها ما هو مشروع وما هو غير مشروع ، لكنها أبدا لم تتحقق!..

هأنا أواصل المشى فى بلاد الله أتأمل ما أرى وأسمع مايقال ، متفرجا على خلق الله ، وكل انشغالى بالبحث عن سبيل للخلاص. قرارات قوية متعاقبة توالت عقب أن لفظت الارادة. كل ما أملك من أموال وزعتها على أولادى وزوجتى وأنا بكامل قواى العقلية والبدنية. بعضهم اعترض بصوت عال ، والبعض بصوت خفيض ، وآخرون لم يعترضوا لأنهم كانوا سعداء بهذا القرار. قصص لاحصر لها سمعتها عن عائلات محترمة تقاتل أفرادها بالسلاح أحيانا وأمام القضاء أحيانا بسبب ثروة الأب حيا وميتا. احتفظت لنفسى برصيد يكفينى عائده الشهرى لأن أعيش مستورا ، وأنام متكوما فى وضع الجنين بفراشى تحت الغطاء ، وأنا أحمد الله على الوحدة والجمع وعلى اليسر والعسر ، فلا أحتاج لأحد ، ولايحتاج أحد لى.

عن يمين الصفر قطعة من الجبن القريش وكسرة من رغيف مقمر وكوز ماء ، أما عن يساره فطبق بيضاوى كبير ملىء بالريش البتلو المشوية على الفحم والكفتة والكباب. هنيئا لك ياعادل يابن فردوس ياهجّاص ، فأنت الزاهد وأنت الشهوانى وأنت الحكمة وأنت الجنون معا..ولابأس قبل الهجوم على هذا الطبق الشهى - الذى تفوح رائحته فى الجو مثيرة لجنون عصب المعدة الحائر – من تناول طبق صغير فاتح للشهية مكون من طعام البحر المشكل من الجمبرى والسبيت والجندفلى وقطع من لحم سمك الوقار مغمور فى زيت الزيتون والشطة وعصير الثوم والليمون..ولايمكن بالطبع ان تكتمل لذة تلك المفرمة التى أنعم الله على بها ، دون أن تتوسط المائدة زجاجة من النبيذ المصرى المعتق أو عدة زجاجات من البيرة المثلجة ، فأنا لا أريد شيئا!!..

وما أجمل أن تنساب فى أرجاء الغرفة موسيقا هادئة تبعث على الأمل والفرحة والبهجة والسرور. لم أغفل احضار باقة من الورد البلدى الأحمر محاطا بفروع خضراء وبيبى فلاور ، ووضعهم داخل فازة بمواجهة المائدة تسر العيون..ياسلام على حلاوة الدنيا ، فحبيبتى هذه المرة مجهولة لا أعرفها الا كطيف أو حلم أو خيال.لكنى أحضنها بعد أن انتهت من ترتيب المائدة وتنسيقها على أعلى درجات الجمال والذوق الراقى . أقبلها وأقول لها:

- **أين كنت ياحبيبتى ومتى تجيئين ؟**
- **هأنا طوع أمرك**
- **الى متى؟**
- **على الدوام**
- **هه؟!..حبيبتى ليس هناك دوام فلا تشطحى فى الأحلام**

وأمشى تاركا المائدة بما عليها وما حولها. أمشى مسحورا بحمد الله الذى رد الى روحى وعقلى ، وإن لم أكن أذكره كما ينبغى على مثلى أن يذكره..وأمشى..وأمشى.. لكنك ما زلت تريد يازول !..

****

● فصـل:

أصل الى بيت أمى.ألقى بنظرة عابرة على البحر حيث تكاثفت طيور النورس تكاكى حول الصخور محدثة ضجيجا جميلا ، مضفية على الطبيعة البحرية سحرا يخلب الأبصار. ما أن أدخل حتى تقول لى:

- كنت أعرف أنك ستجىء اليوم
- كيف؟
- الشيخ منصور

انتهزت الفرصة لأعبث فى تلك الهوة الغامضة التى تفصل عندها بين الشيخ منصور الحلم والحقيقة ، فسألتها وقد وردت الى خاطرى رسالته الثانية التى تحثنى على الصبر:

- هل ترينه وجها لوجه كما ترينني الآن؟
- طبعا كما رأيته أنت الآخر
- أنا لم أره. فقط سمعت همسه فى أذنى. أيمكنك أن تصفيه لى ؟
- به شبه من سيدنا الرسول
- وهل رأيت سيدنا الرسول حتى تقولى ذلك؟
- طالما رفرفت روحه من حولى فى اليقظة والمنام
- أقصد وجهه
- لاترهقنى بأسئلتك. تعالى ياسلمى.انقلينى الى السرير وافتحى لى التلفزيون أشوف أيامكم السوده عامله ايه
- لم تسوديها يا حاجه؟
- مبارك خلق بينكم وبين البوليس دم وعداوة يلزمها عمر لاجل أن تبرد أو تزول ، لما تركهم يقتلوا الشبان حتى يبقى فى الحكم.. والمشير طنطاوى أوقع بينكم وبين الجيش لما عمل نفس العملة ، وصار بينكم وبينه دم وعداوة يلزمها عمر للنسيان..هو فيه سواد أكثر من ان الشعب يقع غصبا عنه مع الجيش والبوليس فى نفس واحد ، لاجل ارضاء نفر أو نفرين..والله يابنى ما شفت فى حياتى سواد أكتر من ده السواد !

لم تكن منفعلة بقدر ما كانت حزينة. منذ فترة ثارت ثورة مماثلة حين شهدت معى سيف الاسلام القذافى ابن الطاغية الثانى ، يشهر سبابته بغرور لايوصف فى وجه الشباب الثائر ، واصفا اياهم بالجرذان فى سخرية أصابتنى بالتقزز . كنت ألمح نهايته المرتقبة فى نفس اللحظة وأتمنى من الله الاسراع بها ليتعظ الطواغيت فى كل أوطاننا البائسة. تحققت أمنيتى حين شهدته بعد ذلك ينتفض رعبا كجرذ مذعور بعد القبض عليه ، وقد قطع له أحد الثوار أصابعه التى كان يهددهم ويتوعدهم بها وعلى رأسها السبابة.فى البدء كان يتصرف كأنه الله خالق كل شىء ومالك كل شىء بدعم من سلطة مستبدة وثروة مسروقة من دم الشعب ، مع أن الله الحقيقى ، مالك السماوات والأرض وما بينهما رؤوف بعباده ، رحيم بهم. حقا انها غرورة خادعة لكل من يسكن اليها.. حاول والده المعتوه من قبل ، فرض واقع سياسى على مصر ، فجمع الآلاف وطلب منهم المشى من الحدود الليبية الى داخل الحدود المصرية.

لم تفلح خطة المشى فى فرض ارادته . ربما لاتفلح خطتى أيضا ، ولكن يجب أن أمشى على أية حال.

جاء يوسف ابن أخى ليزور جدته قبل انتهاء اجازته والعودة الى الامارات.راح يكرر على مسامعها مايردده كل مرة من لعنات على زوجته وسباب لها.

على رمال الشاطىء وأمام البيت مباشرة ، التفت مجموعة من الصيادين حول مائدة صغيرة متهالكة وهم يدخنون المعسل ويشربون الشاى. لم أشأ أن أزعج الحاجة فردوس بتساؤلاتى، فجلست فى الشرفة أستمع بنهم الى حوار الصيادين الذين أعرفهم منذ طفولتى. كانوا يتحدثون عن النوة القادمة، ويعدون العدة لإصلاح شباكهم ومراكبهم وتدعيمها حتى تتحمل الزوابع المتوقعة، ويتهامسون حول جمع مبلغ من المال يساعدون به أحدهم لتجهيز ابنته للزواج.

مشيت داخل جلستى بعيدا عن الصيادين ، فغابت عن مسامعى أصواتهم المعبرة نبراتها عن روعة الصراع مع الزمن والطبيعة بحثا عن الرزق. مالى أنا بكل هذا وكيف لا أفكر بالموت الذى يتهددنى ولا أبالى ؟.. كان يوسف يتحدث بنبرة شاكية باكية وهو يروى للمرة المليون حكايته مع زوجته للحاجة فردوس:

- سترت عليها وتزوجتها لأنى أحببتها. قالت انها ستعيش خادمة لى مدى الحياة عرفانا بجميلى لسترى فضيحتها عن أهلها وعن الدنيا. لايمكن أن انسى قولها لى ونحن فى ربيع الحب:

" كفاية أنى أشوفك".. بنت الكلب تسبنى اليوم بأعلى صوتها دون مراعاة لى أمام الأولاد و الجيران.

قالت له الحاجة بهدوء شديد يؤكد أنها لم تنفعل مثقال ذرة بانفعاله:

- لو كنت رجلا بحق ، لما تجرأت على أن تفعل بك هذا

****

● وصل:

عملت بنصيحة الشيخ منصور بإلغاء الزمن من عمرى. أعلم أنه عمل ذهنى بحت يدعمه الخيال ، لكن الواقع أن عمرى الحقيقى قد تجاوز الأربعين بقليل ، أما المستفاد من النصيحة فهو اطلاق العنان لتداعيات رجل مهدد بالموت – بالمرض أو بغيره- يجتر فيها أحوال الناس ، باحثا لنفسه عن مخرج دون التقيد بزمن ، فضلا عن أنه من الممكن اضافة الفترة الزمنية البرزخية قبل البعث ، الى العمر الذى سأعيشه فى الدنيا باعتباره زمنا واحدا.. من يستطيع أن يمنعنى من ذلك؟. لا أحد بالطبع. لكن ما الفائدة ياحصيف؟..

تسللت هاربا من البيت. مشيت حتى تعبت. جلست الى أقرب مقهى مجاور لأحد المساجد. قلت أصلى المغرب جماعة واتوسل الى الله أن يمنحنى سكينة القلب والقدرة على الاستغناء. اقترب منى كهل أشعث ذو لحية متسخة وعينين زائغتين. تغطى جلبابه الممزق سترة بالية يستعصى لونها على الوصف. يضع فى قدميه مزقتين جلديتين لاتمت معالمهما بصلة الى عالم الأحذية. فى البداية شعرت بقرف من هيئته وخشيت أن يجلس بجوارى فيصيبنى منه مكروه يخرجنى من حالة المشى التى صرت أعيش عليها حتى لو كنت فى سابع نومة.

سقط ذلك الحطام الانسانى من داخله على خارجه مباشرة فوق مشاعرى ، وفوجئت به يجلس أمامى على الرصيف ثم يقوم فجأة ليجلس على المقعد المجاور لمقعدى مباشرة، وتساءلت كيف تبحث عن نفسك يابنى آدم فى مخلوق كهذا ، وما العائد المتوقع لك من تأمل حاله أيا كان؟..

نظر الى متأملا للحظة ، وفى لمح البصر تحول عنى شاخصا نحو شجرة كبيرة شديدة الخضرة بجوار باب المسجد. أعتقد أنه رغم حالته التى يرثى لها ، مازال يريد شيئا وربما أشياء،فكلنا نريد حتى لو قال البعض بغير ذلك.

كانت السماء تموج بمصهور من الألوان الداكنة المؤذنة بقرب الغروب. سأله النادل"أنور" فى غير احترام:

- نعم؟
- شاى
- الفلوس؟!..

أخذ يعبث فى ثقوبه المهترئة مخرجا من كل جيب قطعة معدنية ، ثم ألقاها جميعا فى يد أنور قائلا ببراءة:

- كل مامعى..هه.

نظر أنور فى يأس الى العملات الصغيرة التى كانت – فيما يبدو - دون قيمة المشروب. وضعها فى جيبه متمتما بأحرف غامضة تبينت منها كلمة الصبر ، ثم أصدر اليه الأوامر الأربعة التالية بتحديد قاطع:

- أقعد هنا ، ولا تتحرك ،واشرب الشاى ، وامش على طول !

تمرس النادل الصبور على التعامل اليومى مع شتى الزبان ، من بينهم المجاذيب واللصوص والمتسولين والمشردين، ومنهم أيضا من هم مثلى من عباد الله الهامشيين.

جاء أنور بالصينية وعليها اكوب الشاى وبه الملعقة وبجواره كوب من الماء المثلج كما هو الحال مع أى زبون عادى.

رحت أرقب ذلك الشارد بطرف عينى وهو يقلب السكر فى كوب الشاى بسرعة شديدة ، جعلت مايقرب من ثلث الكوب ينسكب على الصينية ، وكنت أشعر أن ما يحدث فى العالم كله – مثلما يحدث امامى الآن – لايعنينى بالمرة فى شىء ، فيما عدا أن أجتاز منطقة المجهول البرزخية التى مازلت أقاوم دواماتها العاتية.

استعوض صاحبنا ما انسكب من الشاى بصب بعض الماء المثلج برعونة فى الكوب . امتلأ كوب الشاى عن آخره وفاض من جديد ، دونما أدنى اهتمام من جانبه بما يحدث.. أما أنا فلولا الالهام والشرود الرائع وطلب الاستغناء ، لما تمكنت من مواصلة الجلوس فى هذا المكان.

بدأ يشرب محلول الشاى المخفف مع إصراره على إبقاء الملعقة داخل الكوب أثناء الشرب. التفت الى فجأة وقال كمن يفضى الى بنبأ خطير:

- اللحمـــــة!
- نعم؟!
- يوزعونها فى عيد الضحية.. بعد بكره
- آه..كل سنه وانت طيب

كانت أبخرة الشواء تنبعث من عربة صغيرة على الرصيف المقابل للمقهى ككل يوم. يقوم أبو جابر بإشعال الفحم وتقطيع اللحم ووزنه وشيّه ووضعه داخل الأرغفة مع بعض من السلطة، ثم يحاسب الزبون وقد تجلت على وجهه علامات الرضا الأبدى والخضوع التام لسلطان القدر.

- أيّووووه.. أنا أموت فى اللحمة. مقاس رجلى أربعة. عندك مداس؟
- ما اسمك يارجل ياطيب؟
- حسن

ناديت أنور وطلبت منه شراء رغيف كباب على حسابى وتقديمه لهذا الكيان الانسانى. قبل ان يتحرك انور ، شخط فيه حسن بشدة:

- هات كفتة !

تململ أنور مشيرا الى قرب نفاد صبره ، بينما تأملنى حسن بعينين تفيضان بشجن غامض شدنى الى ماض سحيق. أخرج من جيبه ورقة ممزقة بها بقايا أقراص طعمية. قضم منها قضمتين. تساقط معظمها فى كوب الشاى ،ثم وضع الورقة ببقية محتوياتها فى جيبه.

- كم عمرك ياحسن ؟
- أربعة !
- عندك كم سنة؟
- أربعة!
- وأين تسكن؟

أهمل تساؤلى تماما واستدار فجأة بحيث راح يحدثنى بجانبه لامواجهة. ينظر الى تارة والى الأفق الدموى البعيد تارة أخرى. كنت أبذل أقصى مالدى من جهد حتى أستطيع التوصل الى أى خيط يجمع أو يربط بين شتات كلماته المتناثرة فى الفضاء. يردد فى همس مرة وفى صوت مسموع مرات أخرى جملا يتوقف بينها أحيانا ، ويلضمها فى بعضها أحيانا أخرى:

"ضابط كبير. جسمه جسم بغل".

"البنت سقطت من القطار".
"ضرب نار جامد".
"نزلت فى المطار. اعطونى علقة سخنه. مالى أنا بالناس؟".
"قلت لها اقعدى فى البيت يابنت الكلب".
"دمه ساح قدامى .. خمسه وعشرين سنة".
"مظاهرة كبيرة قوى".خمسين مليون جنيه. ياجاه النبى".
"أنا آكل الحديد. منكم لله يا اولاد الجزمة ياخونة نهبتم البلد".
- "هات سيجارة".

أشعلت له سيجارة. أدخل أكثر من نصفها فى فمه. سال لعابه على ورق البفرة وراح يسحب أنفاس الدخان بنهم متواصل حتى سقط نصفها على الأرض.التقط النصف غير المشتعل ووضعه فى كوب الشاى. أخذ يقلب ما تبقى فى الكوب من شاى وماء وطعمية وتبغ ، ثم ألقى ببقية السيجارة على الأرض وداس عليها بقوة عدة مرات حتى سحقها.

جاء أنور حاملا رغيف الكفتة.وضعه أمام حسن وانصرف بجموده المعتاد. انتظرت أن ينقض حسن على الرغيف الذى يشتهيه، لكنه أهمله تماما وكأنه لم يره على الاطلاق!.

- كل ياحسن
- لكن كله الا الظلم..آه..أنا كسرت دماغه قراقيش. ياما قلت لها اقعدى فى البيت يابنت اللبوة. انت السبب . نسوان يعنى مصايب. انت فاهم؟.هه؟.لو كان عندى منها عيل كان شوى لى لحمة. مقاسى أربعة وبيتى مفتوح لأمة خلقه. خوفو نفسه كان فاتح مكتبه للشعب. آه ياسفلة. سبحانه قادر على كل شىء. يعيش جمال عبد الناصر.

ثم قام فى هدوء متجها الى الشجرة تاركا الرغيف. تمدد تحتها على الأرض. وضع نعليه تحت رأسه وعلى فمه انفرجت ابتسامة صافية ، ثم أعطى ظهره للكون فى جرأة نادرة.

أذن لصلاة المغرب ، فغادرت المقهى الى المسجد.

****

● فصل:

مشيت حتى بوابة أول مصنع عملت به فى حياتى . تعاقب عليه ملاك ثلاثة. أولهم كان حشمت بك الهوارى الذى مازال قصره القديم قابعا فى مكانه ، وقد أصبح ادارة لشئون العاملين ، فتحول من قطعة فنية معمارية رائعة الى مزبلة أتقن صنعها الموظفون والعمال. القصر مجاور للمصنع. مواجه للبحر شرق الاسكندرية ، قائم على رماله الخشنة ومن حوله حديقة مهملة . من خلفه تبدو خرائب وآثار حدائق المانجو الواسعة التى كان الباشا يملكها،وقد تم تجريفها فتحولت بالتدريج الى عشوائيات سكنية قبيحة.

حشمت بك – أو الباشا كما كانوا يطلقون عليه – كان حريصا على ارضاء عماله وموظفيه، نفس حرصه على صيانة الماكينات وتطويرها وتحديثها.

أين حشمت الآن؟.. كل الروابط والمشاعر والدوافع والغرائز تتحلل مع الزمن بحيث تؤول من حجم بيضة الرخ الى لاشىء. أين مزارعه وحدائقه وماكيناته وقصره المنيف؟.. ترى أين تقع الآن تلك الذرات الترابية من جسد الباشا وسط هذه المساحة الشاسعة من تراب المنطقة؟..ربما تكون واقعة تحت قدمى الآن ، وربما تكون الرياح قد دفعت بها الى أمواج البحر فسكنت الى القاع بجوار الحشائش والصخور وبقايا السفن الغارقة وتماثيل البطالمة المطمورة منذ آلاف السنين.

من بعد حشمت الهوارى أصبح المصنع مملوكا للقطاع العام بعد أن أممه عبد الناصر. عالم جديد مختلف تماما عاشته المنطقة. مشاعر جديدة عرفها الناس فى ذلك العهد. أفكار ثورية ومشروعات تعنى بالجدوى الاجتماعية الى جانب الجدوى الاقتصادية.بروز قوة التكنوقراط بين أبناء الطبقة المتوسطة وظهور نخبة من نوابغ الخبراء المصريين الحقيقيين

فى مجال الصناعة والاقتصاد.احساس الملكية عند الكسالى واللصوص يختلف كثيرا عن نظيره عند العاملين الشرفاء المخلصين ، كما يختلف عن نظيره الذى عاشه حشمت الهوارى، لكنه مازال موجودا بشكل أو بآخر ، فهو أمر غريزى فى طبيعة الانسان ، فشل الشيوعيون فشلا ذريعا فى نزعه من صدور الناس.

بعد أن كان المصنع يديره بضع مئات من العاملين ، أصبح مكدسا بآلاف العمال والموظفين والرؤساء. أنشئت هياكل ادارية فضفاضة لمسميات وظيفية فقدت قيمتها الأصيلة ، مثل مدير الادارة والمدير العام ورئيس القطاع ورئيس القطاعات ورئيس مجلس الادارة. أصبحت تلك المسميات مجرد"سبّوبة"- كما يقول العمال – لزيادة دخل مجموعة محدودة من الأفراد. رغم هذا التهريج فقد نجح القطاع العام فى إرساء قاعدة صناعية ضخمة بالبلاد ، تخرجت منها كوادر فنية وادارية عظمى، أثبتت كفاءتها فى كل مكان عملت به فيما بعد ، سواء بمصر أو خارجها.

عشت مع هؤلاء الناس فترة من عمرى وأردت الكثير، لكنى لم أحصل على كل ما أردت، فقد كانت عزيمتى ضعيفة ورؤيتى غير صائبة. هذا زمن ميت لم أعد أذكر منه شيئا ذا بال، لكنه محسوب من العمر فى كل الأحوال.

ولما كانت الحقبة الثالثة ، قام لصوص مصر الكبار ببيع القطاع العام برخص التراب لمجموعة أخرى من اللصوص الرأسماليين ، محدثى النعمة من المصريين ، وبعض الأجانب المتعاملين معهم ، لقاء عمولات ورشاو وضعت لحسابهم فى البنوك أو أخفيت تحت البلاط أو هربت الى الخارج.

اشترى المصنع رجل أعمال كويتى شهير من أصحاب السلطة فى بلاده ، والسلطة على عملائه فى مصر ابتداء من بعض الوزراء ومديرى البنوك وانتهاء برئيس الجمهورية الذى كان يستقبله بنفسه فى المطار حين يزور مصر ليتفقد أحوال شركاته ويطمئن على أمواله. أصبح العلم الكويتى يرفرف على مبانى المصنع المصرى العتيق ،مثلما رفرف على كل المصانع والشركات التى اشتراها هذا الرجل والتى كان عبد الناصر قد أممها من قبل.

على بوابة المصنع استقبلنى موظفو الأمن مرحبين. قلت لهم اننى قادم لمجرد تحية زملائى القدامى وليس لى هدف آخر من الزيارة. رحب بى الزملاء وقالوا ان المالك الكويتى رجل طيّب خيّر يحب عماله وينفق علي علاجهم بالمجان لدى أكبر الأطباء والمعامل والمستشفيات ، كما أنه لايبخل عليهم بالعطاء فى كل المناسبات. المشكلة فى المصريين الذين يعملون تحت ادارته ، فهم يريدون الصعود على أكتاف بنى وطنهم بمحاولة اثبات انهم يخافون على ماله أكثر من خوفه هو عليه ، ولرغبتهم غير المخلصة فى ازدياد ثرائه طمعا فى رضاه. تراهم يقترون فى العطاء للجميع ، حتى للمستحقين بحكم اللوائح والقوانين ، لعلهم يتقربون اليه بأى ثمن مهما بلغ رخصه وانحطت قيمته.

****

على الشاطىء مشيت أفكر- حاملا قضيتى على كاهلى – كيف انتقلت الملكية من إقطاعى مصرى الى الحكومة المصرية الى مستثمر كويتى ، بينما ظل العمال على حالهم، اجراء مساكين يطالبون بعلاوة أو بمنحة في عيد العمال لاتكفى لشراء كيلوجرام من اللحم الذى يحبه حسن – والذى مقاسه أربعة وعمره أربعة - ثم يهمله فيتركه وينام معطيا ظهره للكون فى جرأة يحسد عليها. سبحانك يامالك الملك.

حين كنت موظفا عند الباشا ، كان يسافر صيفا الى مصايف أوروبا ، وشتاء الى أجمل بقاع العالم الدافئة ، بينما كنت أتقافز من أوتوبيس الى آخر حتى أستطيع اللحاق بموعد العمل وإلا يوقع على جزاء تأخير. لابد أن حال أبى كان هكذا ، وقد يكون حال أولادى أيضا من بعدى ، مالم تحدث طفرة اقتصادية فى حياتى تنقلنى الى مصاف المستورين ، لا الأغنياء، وهو الأمر الذى تحقق نسبيا بحمد الله حين لم أكتف بالوظيفة ولجأت الى الاتجار

فى الشقق والأراضى رغم محدودية خبرتى بها ، فقد كان اعتمادى بالدرجة الأولى على براعة شريكى فى هذه المهنة ، وكأنه لم يخلق الا ليكون سمسار أراضى وعقارات.
أبناء حشمت باشا ورثوا قصوره وضياعه وحدائقه وعزبه. أولادى لن يرثوا أكثر من مكتبة كبيرة مكدسة بآلاف الكتب التى لايعرفون عنها شيئا ، ومن المؤكد أنهم سيتخلصون منها عقب موتى مباشرة لتوفير غرفة واسعة ، كنت مستوليا عليها وحدى بأنانية بالغة.
هل لديك اعتراض على مشيئة الله فى توزيع رزقه على عباده يا أخ؟..حتى لو كان لديك اعتراض ، فلن تفيد منه شيئا غير الغم والحقد والحسد ، ثم انك لن تستطيع أن تغير من الأمر شيئا فلا ينوبك غير الغيظ والقهر. هذا الكون ملكه وحده ، وهو حر فى ادارته وتنظيمه كيف يشاء. عليك أن تقبل بهذه الحقيقة وإلا فلن تتقدم فى مسعاك خطوة واحدة. اقبل المشيئة الالهية فى كل شىء. ابتعد عن المقارنة، فالباب الذى تدفعه ريحها لاينفتح الا على جحيم.

****

● وصـل:

كانت فرصة لا تعوض لشراء قطعة أرض تقع فى غرب الاسكندرية بسعر غاية فى الإغراء. صاحب الأرض كان يستعد للسفر الى أمريكا بعد بيعها مباشرة ، ليعيش بين أبنائه الذين استقروا هناك منذ عشرات السنين ، وأكدوا عليه أنهم لايفكرون فى العودة الى مصر نهائيا . لهذا حين عرض بيع الأرض على شريكى محمود السعدنى – وهو من أعز أصدقائه كما قال لى محمود - فإنه تساهل معه فى السعر، لكنه طلب تسلم المبلغ نقدا وفورا.
كان من الطبيعى أن نتقاسم أنا ومحمود ثمن الشراء ، على أن نتقاسم ربح البيع كالمعتاد فى تعاملاتنا السابقة . حدث شىء من الارتباك بسبب ضيق الوقت، حين تبين أن حصة شريكى ينقصها مائة ألف جنيه . بحكم تعاملى معه لسنوات عديدة ، كنت أعلم أنه يمكنه تدبيرها بسرعة وبأكثر من وسيلة مضمونة. تطوعت بسداد المائة ألف عنه لصاحب الأرض حتى ننهى التعاقد بسرعة ، على أن نتحاسب ونسوى الأمر بيننا فيما بعد.
لابد أن أتكلم الآن كثيرا عن شريكى محمود السعدنى قبل أن أنتقل الى تطورات الأحداث كما وقعت بعد سفر البائع أو بالأدق بعد هجرته.
من معاشرتى لمحمود وتعاملى معه بيعا وشراء فى العديد من الصفقات ، أصبح راسخا فى ضميرى أنه انسان صادق أمين يراعى الله فى معاملاته ، ويستحيل أن يقبل على نفسه جنيها مشكوكا فى كونه حلالا.
مشكلتى معه أن رؤيته للدين رؤية متخلفة ، خلقت منه انسانا لايمكن وصفه الا بالغباء، فهو يتوضأ فى ربع ساعة ، ويترك موعدا هاما لينخرط فى حلقة ذكر بمسجد يقابله مصادفة فى طريقه ، ويمضى وقتا طويلا فى تهذيب لحيته التى رباها مؤخرا، ويشترى المئات من شرائط الكاسيت لخطباء لايملكون سوى حناجر قوية صارخة تهرف بكلمات تافهة معظمها سب وشتائم فى خلق الله. الغريب أنه ليس جاهلا ولكنه حاصل على بكالوريوس الخدمة الاجتماعية ، أى أنه درس شيئا عن المنطق والفلسفة وغيرها من المواد التى لاتسمح لذهنه بهذه الدرجة من الانغلاق والرجوع الى الوراء والايمان الذى لايتزعزع بالخرافات والأساطير والسحر وعالم الجن.. يتبع ذلك تناقض حاد فى سلوكه مع الناس تجاه الفلوس. أجده يدفع مبلغا طائلا لملجأ أيتام ، وفى الطريق يدفع لمتسول مشكوك فى أمره مبلغا مماثلا،لا لسبب الا لأنه تفاءل به حين رأى قطة بيضاء تمر أمامه وهى عنده تمثل ملاكا،بينما تمثل القطة السوداء شيطانا ، أو لأنه سمع فى نفس اللحظة صوت زغاريد تأتى من مكان قريب وهى صوت يمثل عنده الفرحة والسعادة والبشرى بخير قادم لامحالة، بينما العصر يؤذن وهذا يؤكد مباركة السماء لفعله!.هكذا يفكر محمود.هو رجل طيب ولكن فى طيبته دوجماتية تجعله لايستطيع أن يفرق بين الكرم والسفاهة. يستحيل على مخلوق أن يدفع حساب مشروبات شاركه إياها على مقهى أو فى مكان عام ، والا اعتبر ذلك اهانة له و

انتقاصا من رجولته. انتهز أقاربه وأصدقاؤه الفرصة بعد أن فهموا طبيعته ، فاستغلوه كل على طريقته.كم تنازل عن شقق لأبناء وبنات بعض إخوته دون غيرهم لمجرد أنهم عاملوه باحترام مبالغ فيه وتوقير زائد عن الحد المعقول ، ككبير الأسرة وعميدها وراعيها وحاميها. كم ساهم بآلاف مؤلفة فى أفراحهم وأتراحهم وأمراضهم بمبالغة، لم يتوقعها بل ولم يطلبها أحد منهم.

لم أكن أعرف أنه غارق فى الدين حتى أذنيه حين دفع آخر مايملكه من نقد فى هذه الأرض. عندما انكشفت الحقيقة للجميع ، لم يساعده أحدهم بجنيه واحد ، ولكن توالت ظهور وصولات الأمانة والمطالبات بسداد الديون والقروض ، حتى من أقرب الناس اليه وعلى رأسهم اخوته الذين كانوا أكثر المستفيدين من سفاهته ، والمستغلين لمظهريته أسوأ استغلال.

انهالت عليه التهديدات فجأة ، وهو سادر فى حسن ظنه بمن كان صاحب اليد العليا عليهم. لم يصدق على الاطلاق أن أحدهم قد يضمر له الأذى والانتقام مالم يسترد منه ماله.

كرر علىّ نفس السؤال بسذاجة مزعجة وهو يبتسم فى ثقة الأبله:

- هل من المعقول أن يسجننى أخى؟

فى لحظة ملل انفجرت فى وجهه صائحا:

- نعم.معقول..وسيحدث يامحمود

تحول الى شكّاء كبير وأصبح حاله يصعب على الكافر ، خاصة بعد أن تعرض للسباب والضرب والاهانة. لو كان صريحا معى من البداية وأوضح لى موقفه المالى بصدق ، لما تسرعت فى سداد المائة ألف عنه ، بل لنصحته بعدم المجازفة بكل ما تبقى له من رصيد مالى فى هذه الصفقة السريعة المشئومة قبل أن يجد حلا لأزمته المالية.

رغم ذلك فقد كنت أرى فى سرعة بيع الأرض حلا ينقذه من هذه المأساة ، وطلبت مهلة من الجميع حتى ننتهى من البيع ويأخذ كل ذى حق حقه ، لولا أن تبين لنا أن الأرض قد بيعت مرة أخرى لمشتر آخر غيرنا ، وأصبح من المتعذر إثبات الحقيقة قبل مرور سنة أو سنوات بين قاعات المحاكم ، ومما زاد الطينة بلّة هروب النصّاب الذى هو أعز أصدقائه كما ظل يردد ، حتى بعد أن استقر فى أمريكا ولم يعد أحد يعرف عنه شيئا.

اضطر محمود الى بيع كثير من ممتلكاته بما فيها عربته الخاصة ليواجه بعض الأصوات الصارخة فى وجهه كل يوم. كنت مقدرا لظروفه البائسة ، بينما كان الغيظ من غبائه يكاد يقتلنى ، فلم أطالبه بحقى ، وانما قلت له بإخلاص:

- لاتشغل بالك بى. دعنى أكون آخر الحاصلين على دينهم منك

فوجئت بصاعقة تنزل فوق رأسى وهو يقول:

- أنا لم أطلب منك أن تسدد عنى المبلغ. أنت الذى تطوعت

****

أبلغتنى الحاجه فردوس بضرورة أن أختلى بنفسى ساعة بعيدا عن الخلق ففعلت على الفور، حين هاتفنى الشيخ منصور قائلا إن"لذّات الدنيا كلها ناقصة مكدرة مشوشة، لاتفى لذتها بألمها ، ولايفى فرحها بغمها ، إذ ماخلقت لذّات الدنيا الا لتجلب بها العقول الناقصة وتخدعها، حتى اذا انخدعت وتقيدت بها أبت عليها واستعصت ، كالمرأة الجميل ظاهرها تتزين للشاب الشبق الغنى ، حتى اذا تقيد بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه، فلا يزال معها فى تعب قائم وعناء دائم، وكل ذلك لاغتراره بلذة النظر اليها فى لحظة، ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره، فهكذا وقع أرباب الدنيا فى شبائكها وحبائلها وأنت منهم. تذكر جيدا أنك تنشد سموا الى الروح ، بينما تسكن نفسك الى علوم الغرب وفنونه ، ومن سكن الى شىء اضطرب لفقده.

ياعادل بارك الله فى خطاك نحو الحق ، فبغير السعى لا تكون النجاة. فلا تفعل كما يفعل من يصدق عليه قول الشاعر :
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها.. ان السفينة لاتجرى على اليبس
أنت تخاف من ذنوبك وترجو رحمة ربك. اشكره على ماستر من ذنبك فهو أكرم من ان يكشفه فى الآخرة، واشكره على ما عاقبك عليه من ذنب فى دنياك ،فهو أعدل من أن يثنى عقوبته عليك فى الآخرة.
أنا مطمئن لخوفك من الله ، ولكنى أستحث فيك الرجاء فهو أرق وأجمل ويقودك الى نفس المنتهى ، حيث لايأس ولاقنوط من رحمة الله..واعلم أن من أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام، لم يبق له التفات الى المستقبل، فلم يكن له خوف ولا رجاء ، بل صار حاله اعلى من ذلك."

****

– 4-

ذكرتنى رسالة الشيخ منصور الثانية عن طبائع الدنيا بقول أبى حيان التوحيدى:"ما أشبه الدنيا وخداعها الا بقحبة حسناء، تظل تناجيك وتناديك حتى اذا أقبلت عليها صاحت بالوالى وصرخت فى الناس، وأورثتك الفضيحة و الندامة وعض الأنامل من الغيظ"..كما ذكرتنى بالمومس التى استأجرها قارون لتدعى على سيدنا موسى التحرش بها ، لولا أن برّأه الله وأظهر الحق.

****

● فصل:

كثيرا ماقالت لى أمى ان "من يحبه ربه يفرجه على خلقه" ، وأنا أريد الفرجة على خلقه بحرقة وشوق شديدين ، إذ لم يفارقنى هذا الحلم منذ طفولتى . كلما مرت من عمرى سنة تضاعفت خشيتى من الموت قبل الاستمتاع بها. يطل الطفل من نافذة البيت العتيق على البحر، متجاوزا بخياله الأخضر منتهى حد الرؤية حيث يعانق البحر السماء.أصبح الطفل صبيا يحدث نفسه:

- لكى أنعم بالحلم يجب اذن أن أنعم بالمحبة ، فمعادلة أمى الشرطية صريحة وواضحة.
- لكنك لاتعرف ان كان ربك يحبك أم لا
- وكيف السبيل الى ذلك ياترى؟

عندما رسبت فى مادة الجغرافيا وجاءت بطاقة الدرجات مزدانة بكعكة حمراء، صفعتنى أمى على وجهى فعرفت أننى بعيد عن دائرة المحبة. لكنى لم أفقد الحلم ، ورحت أطارد السواح عند قصر رأس التين محاولا الحديث معهم بالجملة الوحيدة التى أحفظها:

- جود مرننج. يو آر ويلكامد

كانت ابتساماتهم لى تنعش الأمل بنفسى فى تحقيق ارادتى. كثيرا ما كنت أختلى بنفسى بعيدا عن رفاقى بالشاطىء، أتفكر فى تلك المخلوقات التى تعيش وراء هذا البحر الشاسع. تذكرت قول أبى ان الله أكبر بكثير من هذا البحر فهو الذى خلقه.انتهزت الفرصة فسألته كيف السبيل الى محبته ، فعلمنى الصلاة. فرحت كثيرا وأنا أركع خلفه وأسجد. لكنى وقعت فى غرام سيدة جميلة فى عمر أمى أفسدت مخططى لتحقيق الشرط. كنت أحب قبلاتها ، وأنتشى لطراوة يديها وهى تربت على خدى وتلاطفنى وتعطينى قطع الشوكولاتة. ويوما غفوت بجوارها فى سفرة طويلة ، فشعرت بارتجافات أصابتنى بغيبوبة ساحرة ، مازلت أذكر حلاوتها وأستشعر نشوتها حتى الآن.

ظل السؤال الشرطى معلقا حتى قامت الثورة وسمحوا للجمهور بارتياد حدائق القصر الملكى. عشقت هذا المكان عشقى للبحر. داومت على الانسلاخ من الرفاق والاختفاء بين أشجاره الكثيفة. هناك كتبت أشعارا فى حب فتاة خضراء العينين تسكن قريبا من بيتنا. كان شعرها الأشقر يقربنى من حلمى ، وكانت بشرتها البيضاء تنقلنى من حارتنا الضيقة الى ميادين أوروبا التى يتجمع الحمام حول نافوراتها فى طمأنينة ، يتلقى الحبوب التى يلقيها اليه الناس كما أراهم فى الصور والأفلام.

عدت الى الصلاة أمارسها حينا وأنقطع عنها أحيانا. علمنى الأصدقاء شرب الخمر ومضاجعة النساء، فذابت عزيمتى ونسيت الحلم ، وضاعت من ذاكرتى معادلة الحاجه فردوس الشرطية.

لما مات أبى عدت تلقائيا الى الصلاة ، وعشت بين النجوم أعواما ، فلم أخضع لقانون الجاذبية ولم أهف الى صدر امرأة ولم يعاودنى الحلم. كانت تجربة الموت شديدة الصعوبة على عقلى ووجدانى معا.

انهمكت فى صراع الحياة اليومى دون أن يفتر حبى لها وعشقى لملذاتها التى لاحصر لها. بقوة فولاذية رفضت الاستسلام لشكاوى الخلق المعتادة من ارتفاع الأسعار واختفاء المواد التموينية من الأسواق لتباع فى السوق السوداء بأثمان مضاعفة ، وما الى ذلك من شئون دنيوية عادية يجترونها كل يوم بلا ملل ، حتى ضقت بهم وبصيحاتهم ، وتمنيت أن أسمع بدلا منها صيحات الوجد من السكارى فى عشق المحبوب . كنت واثقا أن الأقدار تعدنى لقول أو عمل أهم من ذلك بكثير ، ويقتضى منى استعدادا خاصا وتدريبا شاقا للبحث فى الاثبات طالما أن الدنيا نفى.

فى معمعة أحداث محبطة عاودنى الحلم يوما. لم أكن أتصور أنه مازال ساكنا بوجدانى متربعا على قلب أمنياتى. اننى مازلت مصرّا على الفرجة على خلق الله ، وعلى أن أتفرج على نفسى فيهم ، فبهذه الفرجة أزداد قربا منه ، عسى أن أهتدى بفضله الى كشف يحل معضلتى البرزخية الغامضة.

قذفت بنفسى الى البحر وكان ثائرا فى جنون ، ولما عبرت المحيطات الخمسة وجدت أنه لامعنى للاستكانة ، ولا فائدة من الشكوى ، ولابديل عن فعل كل مايقربنى من دائرة المحبة. تمنيت لو لقيت دعما وتشجيعا من الشيخ منصور على مواصلة المشى دون توقف ، فأنا انسان ملول شديد الرغبة فى كسر رتابة الأشياء ، وأخشى أن أتمرد يوما على المشى فأصاب بنكسة كبرى.

قررت استخدام البيسكليت كبديل مرحلى عن قدمى ، حتى لا أملّ المشى ، فالتجول بها يعتبر مشيا وان كان على عجلتين ، وهو لايتعارض مع هدفى الأساسى من المشى كما أوضحته مرارا وتكرارا.

بالطبع وسعت البيسكليت من دائرة اتصالى بالناس وفرجتى على نفسى من خلال فرجتى عليهم. كنت كلما ازددت معرفة بنفسى صرت أكثر معرفة به.

فى مرحلة تالية استبدلت بالبيسكليت عربة صغيرة ورحت أتنقل بين أقاليم مصر الجميلة وأنزل فى فنادقها ذات المستوى المتوسط ، وأحيانا فى بنسيونات صغيرة ، وأحيانا فى شقق متواضعة بمساكن شعبية رخيصة. ازدادت دائرة الفرجة اتساعا وازدادت معرفتى بالناس وبنفسى، لكنها لم تبلغ الحد المطلوب من المعرفة المرجوة التى تؤدى الى تحقيق معادلة الحاجة فردوس الشرطية ببلوغ المحبة.. فكرت فى الطيران إما بالطائرة وإما بنفسى..

****

● وصل:

أرهقنى ضجيج المدن والتنافس بين البشر وصراع اراداتهم المتعاكسة، بما انعكس على وجوههم من تقلص وتشنج وتوتر ، وعلى أعصابى بالتعب ، وعلى أنفاسى بالاختناق. تمنيت لو وجدت مكانا فى بلدى أنعم فيه - ولو لزمن محدود - بالصمت والهدوء والاسترخاء ، وأكون فيه أكثر قربا من الخالق عن قربى للخلق.

ساقت لى المقادير مقالة منشورة بإحدى الصحف عن محافظة الوادى الجديد ، التى تمثل مايقرب من نصف مساحة مصر ، وتتكون من واحات ثلاث هم الخارجة والداخلة والفرافرة. لم أترك معلومة واحدة عن هذه البلد دون أن أبحث عنها وأقرأها وأدرسها وأفهم أبعادها, تبين لى فى النهاية أن الوادى الجديد هو مبتغاى الحقيقى ، وأن زيارته سيكون بها شيئا قدسيا لا أعرفه شدّ قلبى اليه فلم يكن هناك مفر من الانجذاب الفطرى اليه، وأن راحتى المأمولة لن تكون الا فى هذا المكان النائى الرهيب الذى أوغل فى الزمن مسافة قدرها خمسة آلاف عام .

بضعة آلاف من البشر لم يكملوا المليون ، جاءوا منذ عام 1958 من صعيد مصر الى غرب النيل، وقرروا أن يعيشوا حياة بلا تلوث ، فأقاموا بالحب والصفاء والعمل الدؤوب مجتمعا هادئا مسالما تغمره السكينة.

هاهما قدماى تدوسان أرضا صحراوية شاسعة خاشعة ، يعيش أهلها على الآبار الجوفية يخضرون بها الصحراء. الوجوه سمراء خالية من التقلص لم ألحظ بها عصبية وجوه أهل المدينة. الابتسامة المطمئنة الوديعة تغمر كل الوجوه. الناس هنا رغم تواضع مستوى معيشتهم بوجه عام ، الا أنهم لايجعلونك تشعر بذلك لحظة واحدة ، فهم أهل كرم وقناعة ورضا. مجتمع يخلو من الجريمة.. اترك حقيبتك بالشارع تعود لتجدها فى مكانها. اترك باب شقتك مفتوحا ولا تخف من ارهابيين أو بلطجية أو لصوص. مجتمع هو الأمان نفسه. حين كنت أسأل أى عابر عن مكان ما ، فإنه لم يكن يتركنى قبل أن يوصلنى اليه بنفسه ، حتى لو كان طفلا صغيرا.

المساجد صغيرة جميلة ذات ذوق رفيع وبساطة معمارية متناهية تريح البصر والقلب والنفس. لا تسمع صراخ خطيب فى ميكروفون ، ولكن صلاتهم خاشعة وقورة ، ولاعجب فقد عمرت قلوبهم بالإيمان ونفوسهم بالرضا والسلام.

يا الهى!!..هذا هو وطن عادل المصرى الحقيقى الذى أبحث عنه وأريده وأتمناه وأحلم به!.. لادخان مصانع ولا عوادم عربات.لاضجيج ولاتكدس بنايات أسمنتية ضخمة متلاصقة تسرق الأكسيجين والعمر معا. لامؤامرات ولا محاكم مزدحمة بقضايا السرقة والنهب والتزوير والقتل والاغتصاب. لا ارهاب ولا فتنة طائفية على الاطلاق. انى أراه مجتمعا من الملائكة والقديسين ، ولو كان فى رؤيتى مبالغة ، فأقل ما يوصف به هؤلاء الناس أنهم أخيار بمعنى الكلمة.

البيوت من الطوب اللبن ، والقلوب أصفى من الحليب. أناس أشبه بالمتصوفة والرهبان ، قد زهدوا فى شراهة المدينة وقسوتها ونهمها ، واختاروا حياة الامتزاج بالطبيعة والتوحد معها.

أهم ماشدنى وأثارنى وأبهرنى هنا ، أن الوادى الجديد يشكل بوتقة حضارية مصرية فذة، انصهرت فيها مجموعة من الحضارات الفرعونية والرومانية واليونانية والفارسية والاسلامية.

تجولت بين مئات المواقع الأثرية بين الواحتين الخارجه والداخلة. هزنى مشهد مقابر البجوات ، حيث فر المسيحيون المصريون منذ القرنين الثالث والرابع الميلاديين هربا بدينهم من الاضطهدا الوثنى الرومانى ، وحكى لى اسطفانوس حارس المقابر العجوز – وهو على درجة عالية من الثقافة الأثرية - أن على رأس هؤلاء الهاربين كان القديس اثناسيوس، حيث عاشوا فى أمان وسلام بعقيدتهم ، وخلفوا للتاريخ مايزيد على 260 مقبرة ، تتوسطها أطلال كنيسة تعد من أقدم الكنائس المصرية على الاطلاق.

تقع الجبانة خلف معبد هيبيس الذى شيد فى العصر الفارسى ، وتفصلها عنه أطلال المدينة القديمة التى سميت بمدينة الموتى وسماها البعض مدينة الخلود ، وهى تقع على ربوة عالية تظهر بين صخورها مقابر مدينة هبت الفرعونية حتى عصر الفرس بمصر، وتحتها تظهر بنايات الجبانة القبطية التى بنيت بطراز القبوات المعمارية على شكل كنائس صغيرة.

أهم مقبرة لفتت نظرى هى مقبرة الخروج. تحكى رسومها قصة خروج بنى اسرائيل من مصر يتبعهم فرعون بجنوده، كما تحكى قصة خروج آدم وحواء من الجنة، وقصة يونس والحوت ، وقصة ابراهيم وابنه الذبيح اسماعيل ، وقصة نوح وهو يعبر الطوفان بسفينته. وقد ظهرت الأسماء على الرسوم باللغة القبطية.

الكلمات من أمثال معبد وعبادة ومسجد وكنيسة تثير بوجدانى عواصف عاتية ، كما تثير بذهنى تساؤلات لاحصر لها ، معظمها لا أجوبة لها الا عند مولانا الأعظم لا اله الا هو خالقنا ومنزّل هذه العبادات علينا. ما حدث لى كان فوق توقعاتى لهذه الزيارة بما يفوق الوصف. موجات متعاقبة من الفكر والوجد والتأمل انصهرت فى انصهار المقابر الاسلامية والفرعونية والمسيحية التى انهال عليها الدهر بالأتربة والأنواء ، لكنها بقيت خالدة ، وأنا واقف أمامها كالمخدور الذى لايعرف رأسه من رجليه. انها غيبوبة سكر مقدسة ، تضع مابينى وبين الخلق فاصلا ، وتجعل مابينى وبين الرب واصلا ، حتى أننى شعرت بغيابى الحقيقى عن نفسى ، وتمنيت ان أبقى فى هذا المكان حتى نهاية العمر.

وقفت أمام معبد هيبيس أتأمل تكامل الحضارات ، فهو المعبد المصرى الوحيد الباقى من العصر الفارسى فى تاريخ مصر من660 الى 330 ق.م، شيد فى عصر الأسرة الفرعونية السادسة والعشرين، ثم استكمل فى العصر الفارسى بعد ذلك بخمسين عاما، ثم فى العصر اليونانى حيث أضاف اليه بطليموس الثانى البوابة العظمى شرق المعبد، وأخيرا أضاف الرومان البوابة الرومانية.

فصـــل:

هناك رغبة ملحة تطاردنى منذ عشرات السنين. لا أستطيع مقاومة إغرائها ، ولا أجرؤ على تحقيقها. لطالما تمنيت أن أعمل حارسا لعزبة أو مزرعة أو حتى عمارة تحت الانشاء فى أى منطقة نائية بعيدة عن العمران . أرتدى جلبابى وأجلس على مقعدى ولا يعنينى من أمر الدنيا شيئا أكثر من بضعة جنيهات تكفينى ليومى. وفى أيام الشتاء أشعل قوالح الذرة وفروع الأشجار. أشم رائحة احتراقها المحببة الى فوق الوصف ، وأتدفأ على النار وأدخن المعسل على نارجيلتى الصغيرة ،و أصنع الشاى فى كوز معدن على لهيب الفروع المشتعلة والمضمخة برائحة الكافور، متطلعا فى شغف وتعبد الى السماء والقمر والنجوم.

آن الأوان لتحقيق حلمى القديم ولو ليوم واحد فى هذا المكان النائى الجميل. لا أحد يعرفنى هنا ، ولقد شهدت خلال تجوالى بالعربة ، أكثر من بناية يجرى انشاؤها بسواعد أهل قبلى الطيبين. فى زمن قياسى حصلت على العمل فى منطقة بعيدة عن النزل الذى أقيم به. لو كان بيدى ما نمت ساعة واحدة ، فالطمأنينة والأمان ومسامرات البنائين البسيطة النقية ، تغرى جميعها بالصحو وطيب الكلام. حتى ان نعست فى جلستى ، فهو نعاس أعمق من نوم المدينة بمئات المرات.

عشت التجربة كاملة بجميع أبعادها . مارست معنى الاستغناء. انشرح صدرى بخلو بالى من المنغصات. لم تكن هناك مقارنة بينى وبين غيرى. لم يكن هناك شىء أتنافس حوله مع أحد للحصول عليه. تسلل نور جميل الى قلبى ورأيت الله فى كل همسة وخطوة وخاطرة.

كان لابد أن أعود، وقد عدت بالفعل ولكنى كنت انسانا جديدا أكثر رضاء عن نفسى وعن ربى.

****

وصـــل:

أما رحلتى من الداخلة الى الخارجة فكانت ليلة من أجمل ليالى العمر ، نعمت فيها بالفضاء الفسيح والسماء المرصعة بالنجوم فى ليلة قمرية لاتنسى ، كان الصمت فيها هو المتكلم الوحيد. خلال الساعات الطوال التى أمضيتها فى الطريق لم ينطق السائق المبتسم بأكثر من كلمات التحية والترحيب والوداع وشكر الله ، ووصف بعض الآثار التى نمر عليها دون زيارتها. كان هذا الصمت هو صمت العبادة الحق ، وكان اسم الجلالة طاغيا على لسان قلبى.

فى اليوم التالى صحوت من قيلولة العصر فى البيت الصغير الذى أقمت به ، على صوت العصافير تغرد فوق الأشجار ، ومزارع كهل يجلس مع نفسه ، يقرأ القرآن بصوت عذب خفيض مس شغاف قلبى. مشيت حتى عثرت على مقهى صغير هادىء وطلبت الشاى والنارجيلة. كان التلفاز يذيع أخبارا سياسية مزعجة كالمعتاد. صاح أحد الرواد بآخر يبدو أنه صاحب المكان:

- ياعمى بالله عليك اقفل هذا الملعون حتى نجلس فى صفاء
- ألا تريد أن تعرف أخبار الدنيا؟
- لن تفيدنى فى شىء ، وفى الغالب ستضرنى
- معك حق والله

وأغلق صاحبنا التلفاز وهو يوجه الىّ نظرة خجلى لأنى كنت أتابعه ، وربما يكون اغلاقه قد ساءنى. فهمت مايدور بذهنه فقلت له صادقا:

- فعلا معه حق

رغم صحوى وانتباهى الا أن حالة الغيبوبة السعيدة لم تفارقنى وتوسلت الى الله أن تبقى معى أبد الحياة ، رغم علمى باستحالة ذلك.

وأنا أغادر الوادى الجديد الى الاسكندرية ، كنت أشعر اننى قطعت شوطا طويلا فى الطريق ، وأن ماحدث لى فى الوادى الجديد هو علامة فارقة على الطريق ، فحمدت الله وطلبت منه العون حتى أبلغ النهاية المرجوة.

****

● فصـل:

ثم كان السفر جواّ!!

قررت أن أجتاز التجربة. اخترت بلدة أوروبية أحبها. أمام شركة الطيران وقبل أن أخرج حافظتى لدفع ثمن التذكرة ، همس لى الشيخ منصور فى أذنى دون أن يظهر لى قائلا بحزم:

- لاتسافر بالطائرة ياعادل

رغم خوفى وحيرتى ، الا أننى لم أستطع مقاومة اغراء السفر وتوسيع نطاق الفرجة وتقليل مسافة الاقتراب. كانت ذريعتى لتبرير تمردى على الشيخ منصور ، هى أن أحدا لايعلم الغيب الا الله ، وأننى لن يصيبنى الا ماكتب الله لى ، فسافرت.

بعد ساعتين من اقلاع الطائرة سقطت بنا على الأرض من ارتفاع شاهق يقدر بآلاف الأميال. تناثرت أشلاء الركاب المساكين من حولى وسط حطام الطائرة المنكوبة. هل كان الشيخ منصور يعلم بما سيحدث؟.. وان كان يعلم فكيف تأتى له ذلك؟.

رغم رقة قلبى ورهافة أعصابى فضلا عن بشاعة الكارثة ، الا أن شعرة من جسدى لم تهتز لهول ماحدث. كل شىء محتمل الحدوث فى هذا الكون العظيم. لم يبق على وجه التقريب أثر مادى صحيح للطائرة وركابها أجمعين. مارس الزوال سلطانه بقسوة. الشىء الوحيد الذى بقى صحيحا بين كل الأشياء هو أنـــــــــا!!..

لم أصب الا بخدش بسيط وركوض خفيفة. سقطت جالسا على مقعدى ، ثم ارتددت عاليا بفعل الصدمة الميكانيكية ، لكنى لم أصب بصدمة عصبية ، ولست أدرى كيف حدث ذلك.

الجبال العملاقة والغابات الشاسعة ونهر طويل وصمت مثير وسحاب كثيف ودخان وكائن انسانى منفرد وحيد..حاولت أن أحزن على رفاق الطائرة فلم أستطع. أردت البكاء فلم أتمكن منه. تحيرت فى أمر انسانيتى وخفت على مصيرها. لسبب لا أعرفه صرخت صرخة شديدة ، تردد صداها فى الأفق. لست أظن أنه الخوف. فماذا يكون اذن؟.. ربما لم أكن مصدقا أننى موجود فأردت التأكد من وجودى. شاهدت على بعد بسيط شعلة من النار خافتة. اقتربت منها فى رهبة وحذر وتوجس. قطعة من الطائرة مشتبكة بصدر أنثى يعلم الله من ارتشف من حلمته رحيق الحب أوحليب الرضاعة. من يحبه ربه يفرجه على خلقه. أين أنت الآن ياحاجّه؟..تفرج يا أستاذ. من عرف نفسه عرف ربه. اعرف يا أستاذ أن المستحيل الآن هو المسافة بينك وبين أهلك وكل من عرفت على الأرض. كل ما مضى من حياتك كان مجرد رؤية هلامية غامضة غائمة لأشباح من الناس والأحداث والمبانى والمناظر والأشياء. لاعلاقة بين شىء وآخر. درس فى التذوق الموسيقى. مجنون يقطع أذنه ليهديها الى حبيبته. امرأة تقتل ابنها لتنام مع عشيقها سائق التاكسى. مدرس يبيع الامتحان ويسكر بثمنه. فتاة تحب وتحلم وتتمنى وتأمل وتبتسم. كاتب عالمى يسخر بشدة من المشاعر الوطنية ويحقر من شأنها نسبة الى المشاعر الكونية. ثمن الشقق يرتفع الى مئات الآلاف من الجنيهات ، وظاهرة الزواج تكاد تتوقف فى البلاد.

وصلت ماشيا الى حافة نهر وجلست. كان الجو رائعا. من المؤكد أن مياه هذا النهر تصل فى النهاية الى مدن عامرة بالسكان. بعد الشرب يأتى التبول ، وبعد الأكل يأتى الاخراج ، وبعد التصلب يأتى الارتخاء ، وبعد الحماس يجىء الفتور ، ولاجديد فى الأمر كله. المسألة لاتستدعى إمعان الفكر وإجهاد العقل. الحل الأمثل هو راحة الدماغ. رغم ذلك فالتفكير فى الليل القادم والبحث عن مأوى وطعام وشراب أصبحت كلها مطالب ملحة لاغنى عنها. ألقيت ما بحافظتى وجيوبى من أوراق نقدية وعملات بشرية الى الأرض. لايمكن تسميتها اليوم محلية أو أجنبية بعد أن تساوت الأشياء . مجموعة من الحيوانات الثديية المتطورة فى كل مكان على الأرض ، تحتكر لنفسها حق توزيع هذه العملات وغيرها على الخلق كيفما اتفق ، سواء عن جهل أو عن غرض. أما الناس فقد تضاعفت أعدادهم وأصبحوا كثيرين جدا. الحيوانات أيضا والحشرات لاتعد ولاتحصى. أشباح فى أشباح.

لو استطعت الامساك بالزمن فماذا أنت فاعل به؟.."الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان".. هل يشغلك الآن اتجاه القبلة؟.. أنت أكبر مراوغ رأيته فى حياتك. كم كنت غبيا عنيدا تافها لإصرارك على أشياء تمسكت بها فى حياتك وتعلقت ، هى فى جوهرها لاشىء أكثر من وهم زائف عابر، لايختلف وجودك فى حضوره عن وجودك فى غيابه.

حيوان غريب الشكل يمرق فى الجانب المقابل من النهر. قرونه كثيرة متشابكة تثير الرعب رغم جمالها وتجمد مشاعرى. طالما صارعت الحياة بعنف وشراسة، مستخدما أسلحة فتاكة ضد أعداء ارادتك. على كل من يمشى على قدمين أن يشهر فى وجه الآخرين سلاحه طلبا للمجد والعلو والرفعة وانجاز الأهداف ، والويل لمن لايجيد الطعن. وحدثت نفسى:

- اقتله
- لماذا؟
- لأنك لو لم تقتله سيقتلك
- ليست لدى أى رغبة فى قتله ، فضلا عن أننى لا أملك سلاحا

دعت لى أمى أن تفتح لى طاقة فى ليلة القدر. انتظرتها أعواما عديدة منذ طفولتى حتى اليوم، لكنها لم تنفتح. انفتحت لى أشياء أخرى "مسخرة" بدلا منها. ربما كانت نجاتى المستحيلة - التى تحققت اليوم - هى تلك الطاقة ، ولابد أنها كذلك. قالت لى امرأة يوما:

- أحبـــــك

وقالت لى عشرات غيرها نفس الكلمة ، ولكنى لم أقلها لهن جميعا. المنظر المتكرر الذى ينتهى اليه كل هذا الحب دائما يضحكنى ويثير دهشتى ، فلماذا لايجىء الا على هذه الصورة العبثية؟!..

مازلت فى عداد الأحياء حتى الآن. لو مر أمامى ذو القرون المتشابكة الآن لقبلته فى فمه. مغلوب مثلى على أمره. ليس لأحدنا ارادة فى وجوده بالقرب من هذا النهر أو بعيدا عنه. على كل منا أن يأكل ويشرب ويتناكح ثم يموت. اللعبة غير مسلية ، بل عبثية.

عاودت المشى. سرت البرودة فى جسدى. كلما ازدادت طمأنينتى الواهمة لمصيرى فى هذا المكان، ازددت غباء وامتنع العقل عنى. أين لى بامرأة فى هذا الحلم السحرى العجيب. لكن ماذا أفعل بها؟..لابد الآن من مأوى وبصفة عاجلة. لافرجة الآن على خلقه ، وإنما تساؤل عنيد:

- كيف لم أمت مع الموتى ؟

ترى هل كتب لى الخلود فوق جبل تستند مؤخرتى على صخرة فوق قمته؟..تمثال الحياة. فكرة رومانسية لا بأس بها. آدمى تعس محنط على صخرة وقد فقد عقله. كنت تافها ينتابه القلق لأسباب غريبة ، وتشغله قضايا هلامية أراها الآن – وقد أكون مخطئا - أكثر تفاهة. المستقبل. الآخرون. العمل. الماضى. الحاضر. المتعة المشروعة وغير المشروعة. الشعور الدائم بالذنب حتى لو لم يكن هناك ذنب. المال. الشهرة. ظظ.. مامعنى أن تكون أشهر وأعلم وأغنى رجل فى العالم؟!.. كلما ذهبت الى بلد أشار اليك الناس فى الطريق. هذا هو العبقرى الفذ فلان بن علان

بـن ترتان.بطـل أبطـال العـالم فـى العلـم والفـن والرياضـة والـدين والأدب والعلـوم الفلسـفية والاجتماعية والتاريخ والجغرافيا.. لكن ماذا بعد؟..

أمام مقبرة أبى تشممت تلك الرائحة التى تنبعث بين بدايات الأشياء ونهاياتها. يابنت العرص لاتعرى نفسك. يامولاى اتق الله وكن عاقلا. يا اخواننا الحقونا. لافائدة. بدأت ضروسى تصطك. هل ولدت فى تلك البقعة البعيدة التى اسمها مصر ، منذ عدة أعوام معلومة ليأكلنى اليوم حيوان فى هذا الدغل الموحش؟..عجيب أننى لم أفزع منه حتى الآن. سواء أكلنى أو أكلتـه فكلانـا يمثل جزئية متناهية فى الضآلة من كل هذا الاتساع المتجه الى صاحبه والمنسوب الى جلالته.

قال الفدائى الفلسطينى انه كان مضطرا الى اتباع ذلك الأسلوب البربرى فى القتل والنسف والتدمير وازهاق الأرواح البريئة مع الأخرى غير البريئة. قال أيضا ان كل الأرواح البشرية ليست بريئة، لأنها تعلم بقضيته الخاسرة ظلما وعدوانا ، ولكنها تمارس السباحة والسياحة والجاكوزى والجنس وبعزقة المال على المتعة وأنا والطوفان من بعدى ، وما دون ذلك هلام فى هلام.

ترى أين راح أصدقائى وهل أخطر ببال أحدهم الآن؟..وحتى لو خطرت فما العمل وما الفائدة؟. لايختلف الآن أن أتخلى عن احتراسى أو أن أحتفظ به ، رغم أنه لاتوجد صداقة مع الاحتراس والحذر. الحق أنى كنت ساذجا حين فكرت يوما فى المال والشهرة والعلم والبنون والبنات والأصدقاء والأحباء وقضاياهم والأموات وتاريخهم.

يايوسف ياحمار، اعلم أن المرأة تحتقر الرجل الضعيف وتضربه ب"الجزمة" بلا حياء ، مادام قد ارتضى لنفسه الضعف واستمرأه. مدد ياحاجه فردوس مدد. هل بيدك أن تفعلى لى شيئا الآن، أنت أوالشيخ منصور؟..

دب فى جسدى نشاط غريب. بهرنى جمال الكون وسحره الرائع الخلاب. صليت لصاحبه على طريقتى. رحت أتمرغ بجوانبى على الأرض وأشمها وأغترف من تربتها وأكبش بيدى فى رمالها وطينها وصخورها المتناثرة.

- مامعنى هذه الجبال الشاهقة الراسخة وما عمر بقائها على هذا الحال وكيف ستكون نهايتها ؟
- ألم تقرأ فى قرآنك عن الأوتاد الرواسى التى ستطير فى الفضاء يوم القيامة؟
- لاجدوى من التفكير ، فعقلك مهما كبر صغير محدود

على رف مكتبتك وضعت تمثال المفكر الأنجولى بجوار تمثال الكاتب المصرى وكنت سعيدا بذلك. أنت أكذوبة كبرى لأن أحدا لم يفهمك على حقيقتك حتى الآن ، ولا أنت نفسك!؟

كل المخلوقات التى أنتمى اليها وتشبهنى ، ماهى الا نسخا من أكاذيب مكررة ، وكل لايريد أن يفهم الآخر أو ينصت اليه ولو من باب الرحمة ، ان لم يكن من باب التحضر.. للحظة فقدت القدرة على ادراك المكان، فلم أعرف ان كنت مازلت بالطائرة مع المحلقين فى الفضاء بين السماء والأرض ، أم اننى موجود على الأرض بين الحطام البشرية والآلية. أفقت على ذى القرون المتشابكة يقترب منى فى حذر وينظر الى بعينى انسان ودود. يذكرنى فمه بجمل عربى ذى سنمين رأيته فى صحراء المغرب ، كما يذكرنى – ولست أدرى كيف أو لماذا – بمؤخرة امرأة فرنسية شاهدتها وهى تخلع ملابسها قطعة وراء الأخرى فى ملهى دانيماركى على أنغام موسيقا راقصة ساخنة مثيرة.

قال الكمبيوتر كل شىء ، ولم يبق الا الموت للكسالى والمتخلفين..

- هل تنحاز للغرب؟
- نعم ، فقد صنع عقلى
- لكنه أفسده..ألا ترى ذلك ؟
- بلى
- هل تؤمن بالقومية؟
- نعم ، ولا

- فلابد أنك تنحاز لوطنيتك فوق أى انحياز آخر

- الوطنية هى انتماء متبادل بينى وبين وطنى ، ويستحيل أن تتحقق من جانب واحد ، والا أصبح عقد المواطنة باطلا.

- وما معنى الوطن الآن وأنت منفى عنه فى هذه الورطة ؟

- من الواضح أنك لم تعرف نفسك جيدا ، وأنك لاتفتقد عقد المواطنة فحسب ، وانما لا تعرف ماذا تريد على وجه التحديد حتى الآن .

لويـــــــزا..أيتها الجمرة الملتهبة الفاتنة. كتبت عنك قبل أن أراك أو أعلم بوجودك.. وعندما رأيتك ترقصين فى مينا هاوس أوبروى ، بينما لا تكاد بدلة رقصك تغطى كسرا من عشرة من جسدك البض الأبيض المثير ، عشت معك ألف عام على نفس الفراش،غارقا فى أعماق الطين . الحيوان هو الحيوان... وأنا لا أريد شيئا!..

- كـــــذاب !

حتى فى هذه اللحظات التعسة تريد؟!..نعم . تريد النجاة. يابنى آدم ، ألم تفهم حتى الآن أن لويزا مثل فردوس مثل آسيا وغيرهما ، من حيث النهاية المقززة التى لاتختلف بين رجل وامرأة. لماذا لم يخترع أحد حبا بلا جنس ، أو حتى جنسا بلا عرى أو بلل؟..

- وهل تنحاز للشرق أيها الباحث عن منزلة عند ربك؟

- نعم فقد صنع الشرق قلبى

- لكنه عاد فأفسده..ألا تظن ذلك؟

- بلى

القتال يدور الآن فى كل مكان على الأرض. صراعات وحشية دامية يخوضها الانسان بغباء بين الوطنيات والقوميات والأديان والحضارات ، أما هنا ، فأنا وذو القرون المتشابكة متساويان فى الحقوق والواجبات ، شريكان فى الدين والوطنية والحضارة والقومية فى هذا الدغل الموحش، بل إنى أرى بوضوح أنه أنا ، وانني هو ، حتى لو أكل كل منا نفسه.

الفضاء تحت الطائرة وفوقها ومن حولها يعكس على مرآة نفسى حالة من السكون العميق ، تشاركنى اياها السحب والجبال والغابات والبحار والصحراء والمدن البعيدة والأنهار والبشر.."فليكن معلوما عندكم أن خلاص الله قد أرسل الى الأمم وهم سيسمعون".

اقترب منى أخى ذو القرون فلم أخف منه. الخوف شعور غامض لامجال الآن للتعرض له،لاسيما وهو غائب عنى كغياب الموت عن أى كائن حى فى أى لحظة ماضية من لحظات حياته. راح يتشممنى فى حذر. لم أتحرك. مس ظهرى بقرونه. لم أفزع. هل اختفى منى الانسان ففقدت المشاعر والأحاسيس ، أم أننى فى حالة من الذهول لا أعرف كيف أصفها؟..مازالت نوايانا المتبادلة حافلة بحسن القصد، وما زلت متعجبا لبلادة حسى وانعدام فعلى الشرطى المنعكس.

الجبل خطوط دائرية متوازية ملونة تسبح بعظمة خالقها. الأخضر عشب وشجر. الأبيض جليد. الأحمر أكسيد حديد. الأصفر أكاسيد ترابية أخرى وصخور مهشمة بفعل تفاعل الزمن مع الطبيعة.

جلس أخى بجوارى فى طمأنينة واثقة.ربتّ على ظهره.لن يأكلنى. لن آكله. لامقارنة. أوقعوا بينى وبين صاحب العمل بادعاء خسيس خبيث. لعن الله التنافس والسلطة وحب التميز والعلو فى الأرض. فصلت – ظلما - من العمل بين غمضة عين وانتباهتها. قال كاتب كبير ان المصريين يفشلون دائما فى العمل الجماعى لتلك الأسباب المتعلقة بالتنافس البغيض ، لكنهم يبرعون فقط فى العمل الفردى. عندما احتل المصريون خط بارليف فى ساعات محدودة ، قلت ان هذا الكاتب قد جانبه الصواب بشدة فى مقولته. قال لى بنبرة الحكماء:

- بكره تعرف

أما صديقى السلفى فقد قال بثقة مطلقة إن الله لم يكرم الكنانة الا لأجل الحفنة القليلة من الناس الطيبين الذين يعيشون على أرضها، ولولاهم لتركها تشتعل فقرا وهزيمة وراء الأخرى. الله أكبر..يارازق الدودة فى الحجر ارزقنى وانا قاعد!!..

- بعضهم يقول:"وانا نايم" !!..

عقدت مع أخى ذى القرون اتفاق محبة غير مكتوب وعشنا معا فى سلام وطمأنينة. لست حسن البصرى بالطبع إذ وجدوه يصلى فى حراسة الأسد بعد أن ألقوا به الى قفصه ليأكله إثر تجويع متعمد لأيام ثلاثة متتالية. أنا عادل أيوب المصرى الذى لم يقطع بعد خطوة واحدة فى طريق الوصل الطويل المنهك ، الذى استطاع أن يقطعه الشيخ السالم المطمئن. لا تمل أمى من الاشارة الى أن تسابيح ما بعد الصلاة ، خاصة صلاة الفجر ، تجلب الطمأنينة الى القلب.

احتفل بنا أخوتنا من الأشجار والجبال والطيور التى لم أشهد مثل جمالها من قبل ، وأغلب ظنى أنى سأكمل حياتى معهم سواء بإرادتى أو مرغما.

كابتن الطائرة يتحدث اليكم. أرجو ربط الأحزمة والامتناع عن التدخين والتزام الهدوء.."وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو".. أنا لا أريد شيئا!..

****

● وصـل:

عندما عدت الى الأرض مبهورا بتلك التجربة المثيرة ، خشيت من عودتى الى الملل ومن عودة الملل الىّ ، ففكرت فى الوسيلة الوحيدة المتبقية بعد المشى وركوب السيارات والإبحار فى الماء والطيران فى الجو. دفعنى ذلك الشعور الى استخراج جناحىّ من مخبئهما واعادة تركيبهما على ذراعى ، وقلت أتوكل على الله وأستعيد قدرتى القديمة على الطيران.

قررت أن أهبط أمام دور عبادة كائنة فى أماكن بعيدة عن الحضر، لمعرفة مدى اهتمام أهل هذه القرى الصغيرة النائية ،لابمسألة القرب والمنزلة ، وانما بفكرة الدين بوجه عام ، حتى أعرف موقعى من خريطة الوجود الانسانى فى مبحثه القدسى عن الانعتاق.

هبطت أول ما هبطت على كنيسة فى الصحراء الشرقية ، متربعة على تل عال. فوجىء بى القس أقتحم عليه منبره. بعد أن تمالك نفسه من شدة الفزع ، همست فى أذنه متسائلا:

- ماذا تفعل يا سيدى؟

كان مليح الوجه رقيق الطبع ، يغمر التسامح قسمات وجهه ، وتفيض عيناه بالمحبة الانسانية الالهية. أجاب بوقار دون أن تفارقه الدهشة:

- أعظ النـــاس

ابتسمت مخفيا حزنى وخيبة أملى وقلت له:

- أنظر اليهم جيدا. تأملهم. ان البعض نيام والبعض يتبادلون الحديث!

تنبه القس الى صحة ادعائى بعد أن تفحص عشرات المقاعد الماثلة أمامه ، والتى كان معظمها خاليا. ابتسم بصفاء ثم قال:

- هذا يحدث ياسيدى منذ مئات السنين ، وقد اعتدناه ، خصوصا لبعد المكان عن الحضر
- ويحدث أيضا فى الحضر ياسيدى..انى أتساءل لماذا تتعب نفسك
- أؤدى واجبى
- أنت تنفخ فى الهواء

ثم تركتـــه وطرت.

عندما لم يجدنى ، تململ يمينا ويسارا ومر بأصابعه على لحيته ، محاولا التأكد من وجوده فى حالة يقظة. خيل اليه أنه كان يحلم. كاد يستريح الى هذا التخيل لعدة دقائق ، حتى نما الى علمه اننى قد هبطت بمسجد بعد ذلك وقلت لإمامه نفس الكلمات ، فتيقن من أن ظهورى كان حقيقة لاتقبل الشك.

رفض كبار رجال الدين فى الجانبين تصديق دعوى كل من القس والإمام. حاول الرجلان الاستدلال بشهادة الشهود من رواد الكنيسة والمسجد الذين حضروا الواقعتين. رفض الشهود الادلاء بشهادتهم. منهم من ادعى انه لم يرنى ، ومنهم من ادعى أنه كان موجودا بدورة المياه أثناء هبوطى ، ومنهم من جرؤ على الاعتراف بأنه كان نائما ، أو كان يتسامر مع جاره فى المجلس حول أغنية ذائعة الصيت عن حمار ، كان المقصود به السخرية من أكبر وأغبى رأس فى البلد فى ذلك الوقت.

تسبب النيام والمتسامرون فى حدوث شقاق بين القس والواعظ ، إذ حاول كل منهما أن ينفى للآخر حدوث ظاهرتى النوم والمسامرة فى دار عبادته ، بينما سبق أن اعترف كل منهما لى على حدة بأن هاتين الظاهرتين تحدثان منذ مئات السنين.

طرت من جديد لمسافة بعيدة. هبطت على منزل من الطراز الأسبانى الأنيق الذى يجمع الشرق والغرب فى عمارة بديعة. يطل المنزل على البحر من مرتفع بعيد. يحيط به الزرع بخضرة داكنة. تجاوره منازل أخرى صغيرة ملونة بألوان مختلفة متناسقة مع لونه الأزرق الزهرى البديع.

لحظة استقرار جسدى المنهك أمام باب المنزل ، هرولت خطوات مسرعة من الداخل وفتحت الباب امرأة دهشت لرؤيتها ، فملامح وجهها ليست بغريبة عنى على الاطلاق. انها تشبه لويزا الفاتنة تماما. سألتنى فى دهشة شديدة:

- من أنت؟
- أنا عادل أيوب
- وما الذى أتى بك الى هنا فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟
- لست أدرى

مسحت جسدى بعينين أكثر جوعا من عينى. ترددت قليلا ثم قالت:

- يبدو انك غريب عن البلدة. تفضل حتى تستريح قليلا

تبعتها بفرحة طفل الى الداخل. كانت وحيدة هى الأخرى. لفت نظرى شماعة خشبية تتدلى منها أحذية أطفال عديدة مختلفة الألوان. ملكت المرأة بكرمها الزائد وترحيبها الشديد ناصية قلبى. بعد فترة وجيزة تمكنت من ازالة كل ما وضعته طبيعتى بينها وبينى من حواجز. كان قلبى يعانى من عطش شديد فارتوى وامتلأ بالدنيا ، حين راحت تشكو الى من الوحدة والصقيع. أحضرت لى ملبسا للنوم ثم دعتنى الى فراشها. سألتها بفرحة طفل:

- هل تحبيننى ؟
- وكيف لاتحبك من تدعوك لممارسة الحب معها ؟
- لكن فترة تعارفنا البسيطة لا تسمح أبدا بأن.....
- لاتعقد الأمور ياعادل ، فالمسألة متعلقة بالقلب وحده
- فعلا. يبدو أننى لم أفهم الحياة على حقيقتها حتى الآن
- هذا صحيح ، فالحياة أكثر بساطة مما فى ذهنك بكثير
- وهل نتزوج ؟
- ولم لا ؟
- ولا تفتشين جيوبى خلسة ، ولاتتهمينى كل يوم بخيانتك ؟
- لاتخف..تعال ياحبيبى
- بقى شىء واحد
- ماهو ؟
- أبعد أن يحدث بيننا ما سيحدث ، سوف تنتقل عدوى حبنا بين الناس كما ينتقل الوباء؟
- أهذا ما تريده؟
- نعم
- فلسوف يحدث يا حبيبى.

****

● فصـل:

اذن فكل ما مشيته ضاع هباء!!..
وقولى "إننى لا أريد شيئا" هباء أيضا!!..
انتكاسة قد تطيح بمشروعى كله ، وأعود الى نقطة الصفر من جديد. الغريب فى الأمر أنها طردتنى بعد ذلك من بيتها شر طردة ، بلا تفسير أو تبرير ، حتى كدت أفقد عقلى ، وكاد الشعور بالذنب لما فعلت يعتصر أحشائى.
هجرت المدينة مرة أخرى الى الصحراء الموازية فى امتدادها للبحر بحثا عن الطمأنينة وإطفاء لحريق الشعور بالذنب بعد ما كان من أمرى مع المرأة الغامضة.
عندما بدأت الطمأنينة تعاودنى ، أصبحت هائما فى فراغ يكفينى ألا أفعل شيئا أكثر من النظر الى السحاب والنجوم والشمس والقمر ، وأرقب الأشجار والطيور والحيوانات وأمواج البحر. بين الحين والحين تتجاوب أعماقى مع صمت الموسيقا الذائبة فى جلدى وأنغامها المنصهرة من تحته، فى قلب أعصابى ولحمى وعظمى ووجدانى ، فانتهز الفرصة للعودة الى نفسى محاولا النفاذ الى أسرارها بعد كل من رأيت من الناس وما شهدته من مواقفهم تجاه الأحداث والكون والحياة.

- ومن أنت ياهذا حتى تعطى نفسك كل هذه الأهمية وتنشغل بها كل هذا الانشغال؟
- أنا عادل أيوب المصرى المحب للحياة دون عبودية ، والطمعان فى رضا خالقها بكل ذل العبودية
- وما الفائدة ما دمت ستموت يوما
- أنا لاأخاف الموت ، بل أرحب به حين يحضر فلا أكون موجودا ، فأنا موجود طالما هو غائب.

عندما أنجب طفلة ستثبت فى السجل المدنى باسم فاطمة عادل أيوب ويزحزح اسم المصرى عن مكانه وتنكمش دائرة التعامل معه. عندما تتزوج فاطمة وتنجب ولدا سيضاف الى اسم أبيه ويضيع اسمى الثلاثى الى الأبد. نفس المأساة ستتكرر مع ابنى بتعاقب الانجاب حتى يختفى اسمى نهائيا ولايتردد على لسان أحد بعد أن أصبح عدما. تلك هى النهاية المحتومة لعادل أيوب المصرى، فيالها من قصة هزلية يستمتع فيها الانسان بخداع نفسه، مستخدما سبابته فى الاشارة والانذار والتحذير والتهديد والوعيد وتقمص روح الاله، ثم تكون نهايته فى ماسورة صرف صحى غارقا فى الخراء.
فى رحلة المشى التقيت بمخلوق آدمى قال لى باستعلاء :
- أنا علم تجوب الآفاق شهرته فمن تكون ؟
ذكرت له اسمى فسخر منى ، وكان صاحب جاه وسطوة. تأملت فى تلك الآفاق التى يتحدث عنها بانبهار شديد ، فتبين لى أنها لاتزيد كثيرا عن حدود دائرة عمله العام ، فى مدينتنا الصغيرة ، الكائنة فى أقصى شمال دولتنا الصغيرة الفقيرة المتخلفة ،القابعة فى أحد أطراف قارتنا النائمة فى زاوية منسية من العالم الأرضى الوسيع. احتقرته فى البداية ثم تساميت بنفسى فأشفقت عليه.
كانت فكرة قتله قد تمكنت منى فى لحظة كلمح البرق، حين تراءى لى كوكبنا الأرضى سابحا فى فضاء الكون كنقطة مجهرية يحتاج المرء الى جهد كى يراه بوضوح. تذكرت ذلك المسكين فائق الشهرة. لعله يصيح الآن فى مجال جاذبية الأرض صارخا بأهميته القصوى للحياة ولكن أحدا لايسمعه كالمعتاد. يبح صوته وتسيل الدماء من حنجرته دون مقابل ، فأتوجه اليه بالنصح أن يلتزم الصمت ، ولكن أين هو الآن ، فليس بمقدورى أن أعثر عليه ولو بمعجزة.

توغلت فى الصحراء دون أن يغيب الشاطىء عن ناظرى. نزلت من العربة ووقفت أتأمل الله فى كونه الجميل. فوجئت بمجموعة من مخلوقات غريبة الشكل ، أغلب ظنى انهم آدميون ، يتجهون نحوى صائحين:

- امسكوا هذا الرجل. انه مجنون !

لم أصدق أنهم يقصدوننى فى بداية الأمر، حتى تأكدت من توجههم نحوى فجريت مسرعا. لما أوشكوا على اللحاق بى تزايدت سرعة عدوى بدافع من غريزة البقاء، لكن الذى كان يحيرنى أننى لم أعرف كيف ألصقوا بى هذه الصفة ، ولماذا كانوا يريدون الإمساك بى .

الأمر الذى أزاد من حيرتى ، أن نظراتهم النارية المصوبة نحوى لم تكن تعبر عن التحدى بقدر ما كانت تعبر عن الخوف!!.. لهذا لم أتمالك نفسى من الضحك خلال عدوى ، إذ لم أستطع مقاومة السخرية من فكرة تدغدغ ذهنى تقول:

- مرتعدون يطاردون خائفا !

وفكرة أخرى تماثلها تقول:

- مريض يضاجع ميتا !

فلما توقفت فجأة توقفوا مثلى وتقدم أحدهم منى. ذكرنى بأنه كان هناك حوار قديم بينى وبين امرأة قوية ترأسهم ، وتروج لفكرة واردة من الغرب تعتمد على وحدة جوهر الأديان الثلاثة، وعليه فإنها تطالب إما بتوحيد الطقوس على اطلاقها ، أو بإلغائها جميعا ، سعيا للسلام بين الشعوب وتفاديا للحروب الدينية والعنصرية. سألته:

- فما الداعى الى الجرى ورائى وتعقبى ان كان الأمر كذلك؟
- ياسيدى اننا لا نجرى وراءك ، وانما نجرى خوفا مما وراءنا

لم أشأ أن أعبر عن رفضى للمبدأ برمته ، فأنا أرى فى نفسى مسلما مسيحيا يهوديا فى مجلد انسانى واحد.

- ولماذا تتهموننى بالجنون ؟
- لأننا نراك تتراجع من اتساع الرؤية الى انغلاقها فى مسار نفقي محدود
- أسألك معروفا يا باشا أن تدعنى فى حالى فلا شأن لأحدكم بى .
- كنا نود مساعدتك
- مساعدة العبد للعبد كمساعدة السجين للسجين. شكرا لكم ، فأنا أعرف ما أريد.

أى حيرة وأى عذاب أيتها المخلوقات البشرية.. وأى الآراء يرضيك ياحق لأتحرر من طينتى العاشقة المعشوقة ، فأقترب منك مغمورا بالسكينة المقدسة!.

****

● وصـل:

خلال رحلتى التفقدية للنفس والناس والكون والأشياء ، مغتربا عن أهلى وخلانى لفترات طويلة متعاقبة، فكرت أن يكون لى مقر إعاشة آخر مؤقت يختص بى وحدى، أنطلق منه فى جولاتى ثم أعود وقتما أشاء لأسكن اليه. نأيت بنفسى عن تقمص دور الضحية أو الشهيد أو الناقد البرىء أو الساخط العاجز، تجاه أفعال الناس وغرورهم الدال على جهلهم بحقيقة الوجود الانسانى. انما أقوم فقط بدور الباحث لنفسه عن خلاص يقودنى الى الرضا والمحبة..وكنت قد أتيت فجأة الى الحياة كما يأتى أى مخلوق. وجدت أن الدنيا ماهى الا أرض شاسعة لانهائية الاتساع، لايكفى المشى فيها لملايين السنوات أن يصل الى منتهى. تعجبت لأنها تبدو فى عيون المخلوقات ضيقة ، حتى أنهم يتزاحمون عليها بتدافع العقول والأكتاف والأجساد والقلوب وطلقات المدافع وقنابل الطائرات . كل يقاتل للحصول على أكثر مما يحتاج اليه، غير عابىء بأن يعمى الله عين قلبه.

لم أجد أقوى من الحاجة فردوس لترشدنى منذ اخضرار عودى الى كيفية التعامل على هذه الأرض الواسعة بخلقها الضيقة بمخلوقاتها ، مع هؤلاء المتزاحمين. غير أن ارشادات أمى كانت دائما كالسيف الباتر الذى لايحتمل المراجعة قبل القطع..ورغم تبين صحة آرائها وقراراتها وصواب نظرتها فى معظم الأحوال، الا أننى ظللت أحب المساحات التى تتيح لى حرية التنقل الدائم بين يمين القطع ويساره.

****

فى شارع سينيما جيتيه بالابراهيمية، كنت واحدا من الهائمين فى ذلك الطوفان البشرى غير المبرر. منذ سنوات بعيدة كان لهذا الشارع طابع خاص بمقاهيه اليونانية القديمة، ومطاعمه الصغيرة الأنيقة التى تنبعث منها رائحة شواء الأسماك واللحوم. كان عدد السكان قليلا. على طول الطريق النظيف اللامع ، يلتقى السائر بباعة الزهور والجرائد والكتب والمجلات. كان الناس على وجه العموم يبتسمون.

****

تمسك الحاجه فردوس يدى بقوة حتى لا أتوه منها قبل أن تجد لى ملابس العيد المناسبة. كل شىء دائما بيدها. دور أيوب الأب إما محدود لقلة حيلته أو لمرضه ، وإما غائب لموته. أمى هى كل حياتى. حتى بعد أن تزوجت ، نجحت فى طى زوجتى تحت ابطها بمحبة واقتناع، وصرنا جميعا نمتثل لرغباتها وأوامرها ، فحنانها ممزوجا بقوة شكيمتها كان شيئا ساحرا يخلب العقول ويسحر القلوب.

****

مشيت وسط الشارع المزدحم والتساؤل الملح يطاردنى:

- ترى هل تؤدى جولاتى للفرجة الى ما أريد؟

كنت أشعر بالحزن والأسى لما أرى، اذ تاكد لى أنه كلما تمر السنوات تزداد عموم الأحوال سوءا. أصوات الميكروفونات وشرائط الكاسيت ونداءات الباعة تتداخل جميعا عبر الأرصفة والمحلات الكئيبة التى تخلو واجهاتها من لمسة ذوق أو جمال واحدة. ضجيج العربات وصراخ الشباب وبكاء الأطفال وعيون النسوة وألسنتهم الزاعقة على المعروضات ، وسلال الطعام وروائح كريهة من تعفن الفضلات الملقاة على الطريق ، وطوابير طويلة واقفة أمام المخبز البلدى وتلال من القمامة ملقاة فى كل مكان. تمكن منى شعور بالقرف من الحياة فتساءلت ثانية:

- هل من المؤكد أن جولاتى هذه ستأتى بفائدة وتنتهى الى ما أريد ؟

كما تساءلت لأول مرة:

- هل من المؤكد أنهما خياران فقط لا ثالث لهما ؟

لم تكن لدى اجابة حاسمة عن التساؤل الأول ، أما الثانى ، فكنت أميل الى أنه لابد من خيار ثالث وان لم أكن قد توصلت اليه.

كنت فى مسيرتى مسلحا بالفطرة أستمد منها أمنياتى بالحصول على النتائج المرجوة ، وفى الوقت ذاته كنت مفتقرا الى كثير من المصادر الواقعية لتثبيت هذه الثقة. غير أنى كنت أشعر عقب بعض الجولات شعورا طيبا - ربما هو السعادة – يزول فجأة ليعاودنى مرة أخرى فى زمن آخر وظروف أخرى، ثم يزول ثانية دون انذار مسبق ، غير مبرر لظهوره أو اختفائه.

****

لمحته يسحب أطفاله الأربعة فى ملابسهم البالية. أعلنت صلعته اللامعة استسلامه للزمن . كان مقطب الجبين منقبض الأسارير ، وملبسه شديد البلاء، بينما ازدادت عدسات نظارته سمكا فوق سمكها القديم. "مرسى عبد الجبار" زميل الدراسة العزيز . آه أيتها السنوات الفانية الخئون. لماذا وكيف مضى كل هذا العمر دون أن نلتقى؟..

فكرت أن أسارع اليه لأصافحه وأحتضنه وأقبله ، ولكنى تراجعت فى اللحظة الأخيرة، ووجدت نفسى منساقا وسط القطيع البشرى الى حيث لا أدرى. كنت منشغلا فى تلك اللحظة

بأمر البحث عن المقر المؤقت لإعاشتى لأواصل منه جولاتى دون أن أرهق أهل بيتى ، لحين يقضى الله أمرا كان مفعولا.

فصـــل:

عدت الى الصحراء. فى صمتها وفضائها واتساعها تعبد أجلّه وأقدسه. وجدت الناس يشيدون لأنفسهم المأوى قرب النهر أحيانا ، وقرب البحر أحيانا ، لكن القلة هم الذين اختاروا قلب الصحراء وأغوارها البعيدة ، وأنا منهم.

بدأت حيرتى الأزلية فى التصاعد ، فأنا بطبعى لا أستقر على قرار بسهولة. كان اختيارى للموقع مثاليا من وجهة نظرى ، اذ كان – رغم وقوعه فى قلب الصحراء – يطل من ناحية على البحر ومن الناحية المقابلة على النهر!..

دفعنى اختيارى المثالى – رغما عنى – الى أول مواجهة مع المتزاحمين بشارع لاجيتيه وكل شوارع الدنيا. انشقت الصحراء عن رجل غتيت قال لى بجفاء وخشونة:

- ماذا تفعل هنا ؟
- كما ترى.. أبنى لنفسى جحرا
- أنصحك بالبحث عن مكان آخر وإلا كانت نهايتك
- لماذا؟
- لأن هذه "الوظيفة" محجوزة لى ، وقد أمضيت عمرى استعدادا لشغلها بالترقية اليها !

لست أدرى لماذا حملت معولى ومعداتى وملابسى وطعامى وشرابى ،مؤثرا لسلامة دون أدنى اعتراض أو مقاومة، وتركت له المكان. رغم أننى تصرفت بجبن شديد ، الا أننى كنت أعرف أن أرض الله واسعة ، وأنه لا معنى للإصرار على صراع يمكن الاستغناء عنه دون ضرر.

ذهبت لأحفر لنفسى جحرا آخر فى مكان بعيد ، له نفس المواصفات الجغرافية للجحر السابق. سألت زميلا عن مرسى عبد الجبار ، فعلمت أنه يعمل بإحدى المصالح الحكومية منذ تخرجنا فى الجامعة. ذهبت اليه مدفوعا بقوة فطرية طاغية. استقبلنى بمودة غامرة حتى أنه كاد يبكى لشدة فرحته برؤيتى بعد مرور ما يقرب من ربع قرن من الزمان.

****

ونحن نلهو بالكرة فى الزقاق تشاجر معى طفل مشاغب ، فضربنى بقبضة يده فى أنفى. سال الدم على وجهى وصرخت بشدة وقد أصابتنى رؤية الدم بفزع شديد. استقبلتنى الحاجه فردوس ببرود مصحوب بنظرة استنكارية نارية. غسلت لى وجهى. جلست على أحد المقاعد أستجمع أنفاسى. صرخت فجأة فى وجهى:

- قم يا مره !

ذهلت لقولها. أضافت فى حسم:

- انزل. اضربه كما ضربك ، وإلا لا تعد الى هنا

****

أسرنى عطفه الشديد وودت لو فديته بعمرى ، فما عهدت فى كل من عرفت من الناس كل هذا القدر من المحبة والتعاطف الانسانى. سألته بإشفاق عن أحواله. كانت صورة هيئته البائسة بصحبة أبنائه مازالت عالقة بذهنى ، حين أجاب متنهدا:

- نحمده ونشكر فضله
- ألم تغير وظيفتك منذ تخرجنا وحتى اليوم؟!
- نعم
- ألم تشعر بالملل؟
- تعايشت معه وانتهى الأمر

- زملاؤنا أصبحوا وكلاء وزارة يامرسى، وأحدهم أصبح وزيرا وانت تعرفه
- هه..حظوظ وأرزاق يا أخى

رن جرس التليفون. رفع السماعة مستطلعا. بعد قليل انفرجت أساريره الى أقصى مداها وبانت السعادة طافحة على وجهه. قال لمحدثه بتركيز واهتمام شديدين:

- ألم أقل لك أننا سنهزم هذا الفريق ونتأهل لكأس العالم؟

أصابنى وجوم مترع بالدهشة. بعد انتهاء حديثه حاولت أن أستكمل معه ما انقطع بيننا من حوار، لكنه واصل الكلام عن كرة القدم بكل ما لديه من طاقة للاهتمام. ارتفع صوته واحتد. تحمس وهاج وبرزت شرايين رقبته. مسح العرق على جبهته وقال باقتناع شديد:

- بإذن الله منصورين

بعد أن صافحته وغادرت مكتبه ، شعرت بهزيمة ساحقة تطحن روحى وتعتصرها ، لكنى تحملت الألم.

****

خرج من باطن الأرض مخلوق آخر. كان أكثر جمالا من سابقه. قال لى بتأدب شديد:

- هذا المكان لى وحدى
- لماذا؟
- لأن نفوذ أبى كبير، وهذا الموقع لايليق الا بأبناء الأكابر
- ولماذا لانتنافس عليه بشرف؟
- لاتضيع وقتك فأنا ثرى ومسنود وأجيد العديد من اللغات ومرشح لتمثيل بلادى فى الخارج . ان سيرتى الذاتية لاتسمح بالتنافس يا أخ
- لدى ما لديك. ربما يزيد فى البعض وينقص فى الآخر
- توكل على الله ولا تضيع وقتك ووقتى، لن يكون لك جحر هنا بأى حال
- اذن فهى دعوة للقتال
- لو نظرت من حولك جيدا الى الحراس والأتباع والعبيد والمنافقين، لأدركت أن الانسحاب أكرم لك من الاهانة المؤكدة

دعوت الله أن يلهمنى التوفيق الى مأوى ، حتى أشبع وأرتوى وأنام آمنا.لم يستجب لى الله فى حينه، ورغم ذلك لم أيأس من رحمته كما نشأت على ذلك.

****

جاءنى مرسى باكيا كطفل. عبر لى عن فرحته باستعادة صداقتنا من الزمن بعد أن كاد يطويها تحت جناحيه الحارقين. سألته عن أحواله فأخفى عنى أنه يعيش مع زوجته وأبنائه الأربعة فى حجرتين صغيرتين اشبه بكهف ذى شعبتين ، وأن حياته تعانى من ارتباك مالى شديد. لم يحدثنى عن أخيه الذى اعتقل وعذب فى قضية سياسية ملفقة، ولا عن أبيه الذى مات حزنا على ولده السجين.

بعد صمت طويل قال انه لم يكن يتصور يوما وهو فى أشد حالات التشاؤم أن تصل به الأيام الى هذه المحطة البائسة ، ليقف عندها منهكا مكدودا فاقد العزم والحيلة ، عاجزا عن الفرحة والأمل.كنت أحمل فى حافظتى مبلغا من المال أعددته لشراء بعض اللوازم المنزلية الهامة. دعوته لقضاء السهرة فى أحد الملاهى الليلية – وما زلت أمشى وأتفرج – حتى أخفف عنه توتره الشديد وانقباضه الشبيه بظلمة الموت. تعجب واندهش وبدت علامات الاستنكار لفكرتى على وجهه ، لكنه التزم الصمت. ربما كان يظن أنه فى أمس الحاجة للترويح عن نفسه وأن القدر أرسلنى اليه فى تلك المهمة. قلت لنفسى ان الله سيغفر لى هذه السقطة نظرا لرغبتى المخلصة فى ادخال السعادة على قلب عبد من عباده المظلومين.

****

واصلت السير حتى فوجئت بجندى يشهر سلاحه فى وجهى ويصيح غاضبا:

- كلمة الســـر

- لست أعرفها يا اخى. اخفض سلاحك من فضلك فما أنا الا مدنى أعزل
- ربما كنت جاسوسا
- ياسيدى أنا مجرد انسان يبحث لنفسه عن مكان
- لو بقيت هنا فعليك بطاعتى والائتمار بأمرى حتى الموت
- لماذا؟!!
- أنا هنا صاحب القرارات والأوامر والنواهى وأعرف كيف أحميها وأدافع عنها جميعا
- وما المقابل؟
- أوفر لك الجحر وقدرا من الطعام يقيك من الموت

قلت لنفسى:

- اللعنة على مثل تلك الحياة المذلة ، الخانقة للروح

آثرت السلامة مرة أخرى فتركته ، ومضيت أبحث لنفسى عن مكان جديد.

****

كان مرسى مسلوب الارادة تماما حين دخلنا الملهى وجلسنا الى احدى الموائد. قال لى انه يعلم جيدا ان الحياة حافلة بأسباب المتع واللهو والملذات ، ولكنها تبخل بها على بعض الناس – وهو منهم – لأسباب غير معروفة لديه ، بينما تنهال وتتهافت على البعض الآخر لأسباب غير معروفة أيضا . بعد أن شرب كثيرا وبنهم شديد ، بدأت أعصابه تعرف الارتخاء. عبر لى عن اعجابه الشديد بالموسيقا والرقص والغناء، وكأنها المرة الأولى فى حياته التى يتذوق فيها طعم السعادة والحرية والانعتاق. تماديت فى تشجيعه على المزيد من الشراب، واللعنة على البيت ولوازمه وعلى أيامنا وسنواتنا المنصرمة والقادمة.

انطلق مرسى يتحدث فى فضاء لانهاية له. قال ان الخوف يطارده بلا هوادة.يتصور أحيانا انه أصيب بالعمى ، ويظل يفكر كيف سيدير شئون حياته وقد فقد بصره. يتخيل أحيانا أنه أصيب بالكساح والشلل، ويمضى الليالى الطويلة محيرا فى أمره، كيف يمشى وكيف يحصل على قوت أولاده ، وكيف ستتحمله الأيام وماذا سيفعل به الناس. يرى نفسه أياما أخرى وقد انحرف ، فسرق وارتشى وكذب واحتال ، وإذا بقوة مسلحة تقتحم منزله قرب الفجر لتقبض عليه ويزج به فى السجن.

طلبت له المزيد من الشراب حين بدأت الضحكات المسموعة تتخلل عباراته. كان يقف فى بعض الأحيان ليواصل الحديث لفترة تطول وتقصر ، ثم يجلس مرة ثانية ويشرب ولا يكف عن الكلام أبدا.

أنا أطبل على المائدة ، ومرسى يرقص على الموسيقا ، بينما يواصل سرد حكاياته التراجيدية على ايقاعاتها ، ومجموعة من الشباب قد التفوا من حوله يشاركونه الرقص والتصفيق ، لاسخرية منه ، وانما اقتناعا بحلاوة مشاركتهم اياه سعادته المتفجرة على الجميع . سيطرت البهجة على المكان ولم يكن هناك مفر من قيامى للرقص مع مرسى على كل شىء وعلى أى شىء.

****

لم تعد الثقة الآن محلا للأهمية ، فأنا أريد أن أستريح أولا وأخيرا حتى ولو ذهبت عنى هذه الثقة الى غير رجعة. ولقد تحدت الحبيبة أهلها بثقة شديدة لم تعرف لها سببا ، وراحت تنسج الآمال فى مرسى ، فراحا يتحدثان عن المستقبل ويمشيان على شاطىء البحر والنهر وفى الغيطان . كانا يشمان رائحة الزهور فى نشوة ، وقالا انهما سيبنيان مستقبلهما معا ،ـ ويشقان طريقهما بالحب..ولقد عولا على ذلك القول كثيرا ، وظنا أن شيئا فى الحياة لن يعترض طريقهما.

عند أول منعطف وجد مرسى نفسه فجأة وحيدا بغير أمل ، فتزوج من فوره بفتاة قال انها بنت حلال ومنكسرة..والأدهى أننى اعتبرت الجحر من حقى ، والشبع والارتواء من حقى ، والنوم من حقى ، فقررت مواصلة السعى تحت أى ظرف حتى لا أستسلم بسهولة للموت.

قادتنى خطواتى الهائمة الى جحر يعلو عن سطح الأرض. كنت قد رأيت جحورا عديدة مشابهة له ، من قبل أن يقبل مرسى مع حبيبته التحدى فتصدمه بخيانتها ..وقال الشيخ منصور للحاجه فردوس مرة:

- اننى أتعجب من هؤلاء الناس الذين مازالوا يتعجبون !

ورغم أن المستوى الثقافى للحاجة لم يصل بها الى عمق المعنى الذى قصده ، الا أننى أعتقد أنها كانت قادرة بذكائها على فهم المعنى العام لمقولته، بل وربما تكون قد توصلت بفطرتها الى أبعاد أعمق مما قصد الشيخ. كانت فردوس قد اكتفت بشهادة الثقافة ، التى تناظر السنة الثانية الثانوية فى وقتنا هذا ، ولست أذكر سبب انقطاعها عن مواصلة التعليم ، لكنى لاأشك لحظة أنها لو أكملت تعليمها لصنعت من نفسها شخصية خارقة للعادة، خاصة وأنها لم تتوقف عن تثقيف نفسها بالقراءة حتى أيامها الأخيرة.

****

وجدت نفسى أمام بناية عالية تحيط بها الأشجار والأسوار ، وتتوسطها نافورة تنبعث منها المياه فى أشكال دائرية ، وتنعكس عليها ألوان جميلة لاتكشف عن مصدرها. تناثرت فى أرجاء الحديقة الفسيحة تماثيل عديدة تثير فى النفس كوامن الجمال والرهبة. جلست تحت شجرة أحتمى بظلها. أنعشنى رذاذا الماء المتناثر فى تلك البقعة. وضعت رأسى بأكملها تحت مسقط مياه النافورة، فشربت وغسلت وجهى، ودب فى جسدى خدر لذيذ.. لماذا يكد الانسان ويشقى بحياته ولديه كل هذا الجمال؟!..فليكن هنا جحرى ولو الى حين.

وجدتها تقف أمامى فى كبرياء ، ولكن بنظرات لاتخلو من حنان. نظراتها قوية عارفة، وابتسامتها تحوى كنزا من خيرات الدنيا. سألت نفسى الى أى مدى أعرف الله. تذكرت بعضا من أبيات شاعر انجليزى لم أعد اتذكر اسمه:

"ان دراسة الانسان المثلى .. هى دراسة الانسان القائم على برزخه من الحالة الوسطى..
مخلوقا عاقلا فى ظلمة..عظيما فى خشونة..
أعلم من أن يكون شكاكا لايدرى
وأضعف من أن يكون رواقيا يصبر
معلقا بين العمل والراحة..بين الالهية والبهيمية
يولد ولكن ليموت..ويختلط أمره فى فوضى من الفكر والشهوة
سيدا لجميع الأشياء .. وفريسة لها جميعا
ولا يزال فخر الخليقة وسخريتها..ولغزها الغامض فى آن

رغم ركاكة الترجمة فأنا لم أنس تلك الأبيات منذ عثرت عليها ، لأنها لابد لامست بعدا من أفكارى التائهة.

سألتنى كما لو كانت تعرفنى منذ سنين:

- هل راق لك المكان؟
- بل عشقته
- أنا أيضا أهيم فى حبه
- لا أبالغ لو قلت لك أننى عرفته وأحببته قبل أن أراه
- وهكذا حالى تماما
- أهو جحرك؟
- نعم ، لكنه اغتصب منى

****

عندما حاول أحد اخوة الحاجة فردوس اغتصاب نصيبها من الميراث بحجة واهية، ضربته بعكاز جدى على وسطه ضربة قاصمة ، فسقط يتلوى على الأرض. صاحت به فى حزم قاطع:

- اياك أن تفكر فى ذلك مرة أخرى

حاول القيام ليفتك بها، لكن شيئا ما كتّفه وشلّ حركته ، حين قالت أمى لكائن غير مرئى الا لها:

- انصرف يا شيخ منصور ولا تخف علىّ ، فأنا كفيلة بتأديب هذا الجبان

وسألت صاحبة الجحر الذى وقع عليه اختيارى:

- كيف تقولين انه اغتصب منك وأنت تعيشين بداخله؟
- أعيش بداخله إسما ، لكنى لا أجرؤ على القول بملكيته
- ومن الذى اغتصبه منك؟
- مجموعة من الأفاقين خدعونى بالقانون والعسكر والدين والبلطجة
- وأين تنامين اذن؟
- أنام فى هذا الكوخ الصغير الذى تراه على طرف الجحر
- ألا تشعرين بالخوف أو التهديد من أحد ؟
- أبدا فكلهم جبناء فوق ما تتصور..لقد اكتفوا بصمتى وهم سعداء بذلك
- ولكن معذرة فأنت مهددة بالفعل ، ان لم يكن اليوم فغدا ، على الأقل فى طعامك
- انهم يلقون الى بفتات موائدهم ويعيروننى بذلك كل يوم
- ما اسمك؟
- زهور
- ما أجملك وما أجمل اسمك. هل تأتين معى نبحث معا عن جحر آمن؟
- لا أستطيع مغادرة المكان طالما بقيت على قيد الحياة ، حتى لو أمرونى بذلك
- ....فهل تسمحين لى بالبقاء معك؟
- أنا لا أمانع ولكنهم لن يقبلوا بذلك
- واذا تحديتهم؟
- بمفردك لن تستطيع أبدا مهما فعلت

لم أكن مسلحا ، وقد أنجب مرسى من فتاته المنكسرة أربعة أطفال ، رغم حرمانه الأبدى من وقت الفراغ.

ترددت قليلا. أردت أن أقول لها شيئا فلم أستطع.خشيت أن تتكرر نكستى مع امرأة الصحراء التى اغتصبتنى ثم طردتنى.

انتشلتنى من شرودى الحائر قائلة:

- عليك أن تبحث أولا عن زملائك الذين لم يهتدوا – مثلك – الى جحر حتى الآن
- ثم ماذا بعد؟
- لست أعرف

قالت عبارتها الأخيرة بحدة أقرب الى الغضب والتحريض. فكرت فى الاعتذار لها عن الحاحى وقلة حيلتى، لكنها تركتنى ومضت الى كوخها فى هدوء ، وانهار مرسى باكيا على مشروعاته الطموحة التى تبخرت فى الهواء ، بينما ادعى لى انه كان يبكى صديق عمره الذى قتل فى حرب لامعنى لها ، على أرض تبعد بآلاف الأميال عن أرضنا التى نقيم عليها جحورنا بشق الأنفس.

اختلطت الأمور على ذهنى فجأة ، فلم أعد أميز بين جحرى المفقود والشارع اليونانى العتيق. حاولت أن أخفف على نفسى من شدة الصدمة ، فقلت ربما كانت حالة مؤقتة من فقدان الذاكرة تنتاب الفرد أحيانا لشدة اجهاده النفسى، فالانتكاسة غير المتوقعة التى ألمت بى أفقدتنى صوابى وتركتنى أجتر الندم على كل مابذلت من محاولات مخلصة على الطريق. لكن الذى حدث لى بعد ذلك كان شيئا غريبا ، إذ لم أعد أميز بينى وبين مرسى عبد الجبار ككائنين مختلفين التقيا مصادفة بعد ربع قرن من الزمان. كنت أتصرف بحياتى أحيانا كما لو كنت أنا ، وأحيانا كما لو كنت مرسى.

استجمعت عزمى وارادتى وقواى العقلية بعد جهد عنيف من محاولة التركيز ، ورأيت أن الحل الأمثل كى يطمئن قلبى هو أن ألتقى بمرسى وجها لوجه ، وفى مكان محدد أعرفه تماما حتى لاتكون هناك أدنى فرصة للخلط أو الالتباس.

...وكان رواد المقهى منفجرين فى الضحك وهم يصفقون على أنغام الموسيقا ، وقد التفوا من حولنا ، وأنا ومرسى نؤدى معا فى وقار شديد رقصة شعبية معروفة.

****

"ولما كانت الليلة الألف من ليالى السير المتواصل ، بلغنى عن الحاجة فردوس أم عادل ، عن الشيخ منصور المجهول الهوية ، ان حياتى البرزخية تبدأ بقبض روحى والعروج بها. أما عن الجسد فللقبر أحواله المتضمنة لضمته، وسؤال الملكين الذى سيتحدد به مصيرى فى الآخرة والتى أول منازلها القبر.فإن كنت من أهل التقوى بشرت بالنعيم فى القبر وفى الجنة ، وإن لم أكن منهم ، فسأظل معذبا الى يوم البعث والعياذ بالله"..

-5-

رغم أن ماجاء بالرسالة الأخيرة معلوم لدى تماما وبتفاصيله الدقيقة ، الا أن مجيئها فى ذلك التوقيت زلزل كيانى ، وبكيت خوفا على مصيرى بعد انتكاسة الصحراء التى ذقت فيها أعلى مراتب نعيم الدنيا ، متبوعا بطردى المفاجىء منها بغدر غير متوقع ، وصرت من ساعتها أسيرا للندم والآلام التى يصعب التحرر منها ، وعلى رأسها ألم الخوف من عقاب الله.استحضرت رسالة منسية للشيخ منصور قال لى فيها:

" اعلم يابن المصرى انه مالم يكف الخوف جوارحك عن المعاصى ويقيدها بالطاعات ، فخوفك الذى يؤلمك أكذوبة، لأنه لاينبغى أن يؤلمك وانما ينبهك ويفيقك من غفلتك.. ولن تستطيع ترك المشتهيات الا بقمع الشهوات، ولاتقمع الشهوة بشىء كما تقمع بنار الخوف ، فخف قدر ماتستطيع، فمن خاف الله خافه كل شىء ، ومن خاف غير الله خوّفه الله من كل شىء. والخوف أفضل لك بكثير من أن تأمن لمكر الله الذى أوحى الى داود عليه السلام بقوله:خفنى كما تخاف السبع الضارى.

انى سعيد بخوفك ، فالآمنون من الخوف هم الفراعنة والجهال والأغبياء ، فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة ايمانهم، من سوء الخاتمة ، فكيف لايخافه الضعفاء من أمثالك؟"..

مازلت ماشيا متأملا راصدا، آملا فى الوصول الى بر الأمان. صباح كل يوم أفتح عينى على فزع الوجود. أسبح بحمد الله الذى رد الى روحى ، وأشهد بوحدانيته ، وأستعيذ به من شر الناس والجن راجيا منه أن يمنحنى الأمان فى يومى ، فالنزول الى الساحة ليس بالأمر الهين ، خاصة لو تجاوزت دور المتفرج الى دور أكثر ايجابية يستلزم التعامل مع الآخرين.

الساحة الآن ملعب وغابة ومسرح ومجزر آلى وملهى ليلى ونهارى. غير أن تكرار الدهشة والمفاجأة وعدم تصديق ما يرى ، جعلنى أدمن الاعتياد وأرى فيه شيئا رائعا ينسينى دهشتى الدائمة، اذ يحولنى كل يوم الى دبابة رهيبة تستشعر عن بعد ، وتضرب قنابلها المدمرة فى بعد، وتقتحم ما يعترضها من عائق فى جبروت مخيف.

اليوم موعد الاجتماع التاريخى الثانى ، ضمن سلسلة الاجتماعات التاريخية المتوالية والمعتادة بشأن أى موضوع تافه. تم تجهيز قاعة الاجتماعات بمنصة حافلة بالميكروفونات وأجهزة التسجيل ومكبرات الصوت. كانت خطب الاجتماع الأول نارية أثارت حماس المجتمعين ودموعهم ، ثم غادروا القاعة الى بيوتهم فأكلوا وشربوا وتفرجوا على التلفزيون ، ثم ضاجعوا زوجاتهم وناموا.

دبابتك لم تكن تتوقف عن التقدم والاكتساح الا أمام بنك أو امرأة. يسارع جنودك المدججين بالسلاح الى النزول. يجمعون لك لفافات المال وما تيسر من النساء ويعودون بهم الى الدبابة. تجمع وتكنز وتختزن الحصيلة تحت أسوار سحرية فى بقاع بعيدة غامضة لايعلمها انس ولاجان ، سوى الحفنة اللصيقة بك والمنتفعة منك. تمنع وتمنح كيف تشاء ، والجميع يهرولون من حولك فى احترام هو الخوف وليس شيئا غيره. تستعرض أنماط الجمال وتغوص فيه ولا تشبع. تضع رأسك على صدورهن وتغفو. بين النهود تتنفس. تتجاوز خدعة الحياة بوجد وأسى ، ولكن بقناعة من لايختصم مع القدر. تسبح طمأنينتك بين الأحضان الناعمة.تغفو فى عطرها ورحيقها وتهيم فى نسماتها الفطرية الفواحة التى لايداني روعتها أثمن عطور الدنيا. ترى زهورا وعصافير وتسمع أناشيدا ، وتكاد تمسك بالدنيا لتضعها فى قلبك ، وتلك هى الكارثة. لو أبقيتها بيدك لهان الأمر ، ولكنك تنسى دائما وتفقد عزمك ، فتفتح لشياطين الدنيا أبوابك على مصاريعها.

أعترف أننى مافعلت شيئا طوال الطريق – فيما مضى - الا انصياعا لبضع نزوات طارئة. أعددت خطبة نارية ستلهب أكف المصفقين العرب الأفذاذ الذين يشاركوننى الفرجة ولكن من أماكن أخرى. لايعيد لى أحدكم التفاحة قبل أن يقبض بيديه على أحشاء عبثه ، والويل لكم من الدم والدموع وآهات الفراق الأبدى.

إعترف بأنك لم تعرف الحياء والخجل..جدارتك بالحياة صفر لايزيد. أنت جدير فقط بأن تحسد الحشرات والحيوانات. اعترف بأنك أدمنت السكون والصدأ والتبلد ، فغرقت فى شهواتك وفاتك الزمن والعصر كله. جبان. قليل الحيلة. عاجز عن ممارسة رجولتك فى غير الجنس الذى يبرع الخنزير فى ممارسته خيرا منك بعشرات المرات. ترى الظلم بعينين لاتبصران وتسكت. تصعد وتهبط وتقوم وتنام وتنجح وتنكح وتجلس وتقف وتفعل وتمتنع وتأمر وتحكم وتتحكم وتضعف وتخضع وتضرب وتقتل ، حتى تعتلى منصة المؤتمر لتشارك فى حفل الكذب العظيم.

نمور وخراتيت وثعالب وجرذان وأرانب هم أبطال المؤتمر ومتفرجوه. كلّ يعتلى مدرعته ويطلق نيرانه. فى ساحة الملعب البيضاوى اللفاف عيون تشع شرا وشررا، وقلوب تقتات على الكبر والعجب.

على خشبة المسرح يتم الذبح والجزر وبتر الأطراف واغتصاب النساء وفقأ الأعين وبقر بطون الحوامل، فأنا لونى وأنت لونك ، وأنا دينى وأنت دينك ، وأنا قوميتى وأنت قوميتك ، وانا فقرى وأنت ثراؤك ، وأنا ثرائى وأنت فقرك ، وأنا فكرى وأنت فكرك ، وهذا هو صوتى اللعين يحتبس منى فجأة ، فلا أستطيع الكلام وأضطر الى مغادرة المنصة ، لأواصل المشى يحدونى الأمل والرجاء.

****

"هاتفنى الشيخ منصور قائلا إن الرجاء والخوف جناحان يطير بهما المقربون الى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كئود ، فلا يقود الى قرب الرحمان مع كونه ثقيل الأعباء محفوفا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء ، الا الرجاء..ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم ، مع كونه محفوفا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات ، الا الخوف.

وأذكرك بما قلته لك من قبل أن من أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام ، لم يبق له التفات الى المستقبل ، فلم يكن له خوف ولا رجاء ، بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء ، فمن خاف شيئا هرب منه ، ومن خاف الله هرب اليه."

****

– 6-

●وصـــل:

يربكنى مرور الأعوام ومجهولية لحظة النهاية. أحتار فى أمر آمال تحققت وطموحات اغتيلت وأمنيات سرقها الزمن.انشغالى كان عميقا بالتفكير طيلة الأسبوع الماضى فى مجموعة من المخلوقات التى تمشى على قدمين، لأن تحقيق ارادتى كان رهن ارادتهم. هذا فى حد ذاته أمر مرعب. كلما أردت شيئا كان على أن أنتظر سماحهم وموافقتهم. انهم كثيرون ويعيشون فى بلاد مختلفة ، تبعد بعضها عنا بآلاف الأميال ، وهم يفكرون بعقول مختلفة وان توحد الهدف.

غفوت لحظة أثناء تناولى طعام الغداء بالأمس ، فرأيت نفسى ممسكا بمدفع رشاش سريع الطلقات ، ورحت أجوب الدنيا ماشيا على قدمى باحثا عنهم فى دأب وإصرار. كلما وجدت أحدهم حددت بمدفعى لحظة نهايته.

عندما أفقت تبين لى انهم مساكين مثلى ، يعانون جميعا من ذات دائى. آه من تلك المخلوقات التى تضحك وتمرح وتتفنن فى خداع الرب والإنس والجن. لابد أن أفترض أننى سأعيش معهم عاما آخر على الأقل ، يكفى للتخطيط لهم جميعا للقضاء عليهم وقطع دابرهم من الحياة.لايمكن أن أدعهم ياكلوننى ، لأننى رفضت أن آكل أحدا من قبل.

عاودنى الارتباك خوفا من لصوصية الزمن، فقررت أن أبدأ العمل على الفور. اتصلت بأولهم وكان يشغل منصبا كبيرا ويتمتع بنفوذ عالمى. بعد أول رنين لهاتفه السرى ترددت وشعرت بفقدان مفاجىء لرغبتى فى الاتصال به، فأغلقت الخط ومسحت عرقى وتبولت وأشعلت سيجارة وخلعت نظارتى ، وفعلت أشياء أخرى كثيرة لا أهمية لها. عاودت الاتصال به من جديد. قال بآلية قاتلة:

- **نعم؟؟؟؟**
- **أنا عادل أيوب المصرى.. ألا تذكرنى؟**
- **إم م م م..آه...لا..لا..لست أذكر ، فمشاغلى كما تعلم فوق طاقة البشر**
- **طلبت منك كذا وكذا ووعدتنى منذ عدة أعوام بإجابتى الى طلبى المشروع**
- **فى الحقيقة لست أذكر شيئا من هذا ، ولكن عموما سوف أبحث فى هذا الأمر**
- **ألم تتفضل سعادتك بالبحث فيه حتى الآن؟..اننى صاحب حق كما تؤكد مستنداتى وأوراقى**

بدأ يفشل فى مواصلة أداء الدور الذى يحاول تمثيله ، فبدت عصبيته واضحة وهو يزعق صائحا:

- **قلت لك سوف أبحث الأمر بنفسى. أرجوك.. وقتى ضيق والجنسيات أمامى متعددة**
- **ياسيدى أنا صاحب أولاد ورزقى محدود ، ولا أخفى عنك أننى فكرت فى الانتحار يأسا أكثر من مرة**
- **يارجل حرام عليك.اتق الله يجعل لك مخرجا ولاتقلق. مع السلامة**

بأعلى صوتى شتمته:

- **انت صحيح رجل ابن كلب وسخ !**

أغلق الخط بسرعة ، فطلبته ثانية ولم يرد بالطبع خشية الاستماع الى المزيد. يتحدث عن الله ابن الضلالى ، وأنا أعرف بالتفصيل الدقيق كيف يخادعه للحفاظ على مقعده ، وأعرف بأى السبل كيف يضيق وقته أو يتسع للاستماع الى أمثالى من المكروبين.

نمت بعمق رغم خوفى من الحياة والموت معا. عندما استيقظت قررت الاتصال بآخر. حدثنى بلطف شديد ، لم أشعر ان كان حقيقيا أم زائفا:

- **أهلا يا أستاذ عادل.. أين أراضيك ياعزيزى؟**
- **أشكر سعادتك على حفاوتك، لكنى مازلت فى الانتظار ، فماذا تم بشأنى ياترى؟**
- **يا أخى حدثنى أولا عن صحتك وأولادك وظروفك..كيف الحال؟**

- لقد مرت عدة أعوام على اتفاقنا ، ولكن شيئا لم يتحقق !
- كل شيء سيكون على ما يرام بإذن الله. لاتتعجل مشيئة ربك يا أخى

تتحدث عن الله أنت الآخر؟ ما الذى جرى لكم يا اولاد القحبة؟..تتشدقون باسم الله وكأنها موضة العصر سواء لاستغفال الناس أو لإرهابهم..

لم أجد مبررا لمواصلة الحديث مع عبقرى زمانه لأنى نويت أن أقتله. اتصلت بثالث فقال بثقة وإصرار:

- آسف. لن يتم لك ما تطلب
- لماذا؟
- لأنه ليس من حقك
- كيف؟.. اننى قلت وفعلت وكتبت ما طلب منى تماما
- لاتتعب نفسك معى. ماتراه أنت منطقيا قد أراه أنا خلاف ذلك تماما
- إذن فقد تراجعت سيادتك عن وعدك القديم
- أنا لم أتراجع ، ولكن اعطنى فرصة لأفكر لك فى حل وسط يقف بنا فى منتصف الطريق؟
- أنت تسلب حقى هكذا

ألم أقل انهم يتحكمون فى أمنياتى و يقررون مصيرى؟..اتصلت بالرابع فقال بوقاحة سافرة:

- لن أفعل لك شيئا ، وما عندك فاعمله
- ولم هذا؟
- حسب مزاجى يا سيد. أنا حر. أفعل ما أشاء لمن أشاء وقتما أشاء
- هل تحاول الدخول فى منافسة مع الله يا روح امك؟

صار عدد القتلى ثلاثة من أربعة. تابعت اتصالاتى التليفونية ، فارتفع عدد القتلى الى تسعة. اكتفيت بهذا العدد كنماذج ممثلة لبقية من يمشون على قدمين، وبذلك أحقق نهاية سعيدة لعام 2011 الذى ليس بأول الأعوام ولا بآخرها.

بعد ستين عاما من اليوم سيكون كل الذين عرفتهم ممن تجاوزوا سن الشباب قد ماتوا ، وكذلك أنا بالطبع،وسأذهب بروحى الى مسقط رأسى القديم وأقترب من الحارة. لن أجد بيتا واحدا أعرفه. سوف أجد بنايات ضخمة تطاول السحاب فى ارتفاعها. الوجوه المطلة من النوافذ والشرفات غريبة تماما على عينى. أين البيت العتيق بسلمه الخشبي المتآكل ، وأين الحاجه فردوس ذات الشخصية التى لاتنسى؟..أين راح دعاءها لشباب المنطقة من جيرانها المسلمين والمسيحيين الين استدعوا للقتال فى العراق تحقيقا لرغبة دكتاتور مصر وخادم الأمريكان؟..كانت تذكرهم واحدا واحدا كلّ بإسمه الذى تعرفه ، فإن لم تتذكر اسمه فهى تحدده بإسم أمه ، فهو ابن سنية أو ابن تيريز. أين تلك الأيام التى تفتح فيها قلبى على نبتة حب خضراء أذاقتنى نعيم الحياة ، وعلمتنى السباحة فى بحور أحلام الشباب الجميلة؟..اللعنة على هذا الغموض السخيف. أنا لا أفهم شيئا.كان حماسى جنونيا لتحقيق أحلام تافهة دفعتنى الى اغتيال تسعة آدميين فى لحظة واحدة ، رغم أن بعضهم كان يسكن فى مشارق الأرض والبعض الآخر فى مغاربها. اننى ميت بالفعل. كانت تنقصنى سعة الخيال حتى يمكننى أن أتصور كل ما رأيته اليوم إبان حياتى. لو كنت قد نجحت فى ذلك لما تمنيت ولما تحمست ولما قتلت. لكن الذى حدث أننى – كغيرى من خلق الله – عجزت عن هذا التصور فكان ما كان . لهذا وجدت نفسى مدفوعا بقوة خفية الى البحث بين ذرات التراب عن واحد على الأقل من المتألهين التسعة الذين قتلتهم منذ ستين عاما.

أخيرا نجحت فى الحصول على أحدهم بتراب اليونان. لم نتبادل الحديث فقد كنا بلا أجساد، وانما رقصت روحانا معا على أنغام البوزوكى ، ثم شاركتنا المجلس جنية حضرت لتوها – كما قالت – من الأرض السابعة. رقصت معنا بحيوية عمقت فى نفسى الميتة ، الاحساس بامتزاج كل عناصر الكون والزمان والمكان.

بعد وقت لم أشعر به وجدنا أنفسنا وسط مقابر الفراعنة. اتسمت الأنغام الآتية آنذاك بطبيعة نورانية شفافة حالمة، جعلتنا نتوقف عن الرقص ونكتفى بالاستماع وهز الأرواح. بعد قليل هبط بيننا كائن جميل الطلعة حلو الرائحة. خلع جناحيه وجلس معنا فى صمت حالم ، حين نمنا جميعا نوما أبديا لم نفق منه حتى الآن.

فى تاريخ لا يعرفه أحد سوف تنهمر سيول وعواصف وبراكين، ولعلها انهمرت بالفعل حيث امتزج الجليد بالحمم النارية وبزغت الشمس واندفعت البحار والأنهار مقتحمة عوائقها مقررة مصيرها النهائى.. فى ذلك الحين لم يكن أحد ممن تحدثت عنهم قد ولد بعد ، ولا أنا أيضا ، ومن ثم فإن المقاعد التى جلس عليها هؤلاء التسعة – ان كانت قد صنعت – جلس عليها تسعات أخرى وأخرى، ولكنى أظن أنها لم تكن قد صنعت بعد ، كما أظن أن الخلايا الدنيئة التى بدأت تزحف الى الأرض فى ذلك الزمان، كانت تتأله هى الأخرى على بعضها البعض بشراسة مضاعفة ، مما أدى الى بقاء بعضها وانقراض البعض الآخر.

****

" هاتفنى الشيخ منصور :

هاهى الدنيا وقد شعرت برغبتك فى الزهد فيها ، تحتال عليك فتظهر لك فى صورة امرأة جميلة تميس وتختال..يقول لك لاتنخدع بظاهرها، فباطنها عجوز شمطاء شوهاء عجنت من طينة الخزى، والتفت فى جلبابها لتخفى عنك قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال والمكر والاغتيال، ثم لن تجتزىء معك بالخلف فى مواعيد الوصال ، بل ستقيدك مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال وتبليك بأنواع البلايا والأنكال، فهل أنت قادر حقا على الزهد فيها وترك التفاخر بالتكاثر والأموال ، والاقبال بكلك على حضرة الجليل واثقا فى وصل دون فصل ، ومشاهدة بلا زوال ولا فناء؟..

قلبى معك ياعادل يابن فردوس..اتركها ياعادل قبل أن تأنس بها أكثر مما أنست على مدى عمرك، فتكون آنسا بغير الله ومحبا لما سواه. أترك التمتع بخمرها وأشربتها طمعا فى خمر الجنة وأشربتها. اترك التمتع بنسوان الأندية والمجتمعات طمعا فى التمتع بالحور العين. اترك التفرج فى الحدائق والمنتزهات طمعا فى بساتين الجنة وأشجارها. اترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعا فى زينة الجنة. اترك المطاعم اللذيذة طمعا فى مطاعم الجنة.

هل أنت قادر حقا على هذا كله يا عادل يابن فردوس؟؟..

انى لا أدفعك الى فعل مالا تحب تحت دعوى النصح والارشاد ممن يعرف لمن لا يعرف ، ولكن خوفا عليك من فشل مسعاك الذى تقاتل بإخلاص لبلوغه رغم شدة وعورته ".

- 7 -

●فصـــل:

فلما نزلت يوما تحت الأرض بعد سأمى مما فوقها ، بهرنى عالم الصمت والسكون. شعرت بسلام داخلى لامثيل لروعته ، وتخليت عن التفكير فى أى شىء على الاطلاق. غير أننى بعد مرور مائة عام اعتصرت ذاكرتى للوقوف على تفاصيل القضية المهمة التى كانت تشغلنى وتؤرقنى وتكاد تقتلنى فى ذلك الحين والتى لم يحسمها لى زمانى ، رغم أننى كنت أعتبرها مسألة حياة أو موت. بذلت مابوسعى كى أتذكرها دون جدوى. فكرت أن أتلذذ بالندم على مافات ، أو أن آمل خيرا فيما هو آت ، فلم أستطع.

كان من الطبيعى أن أفهم أن كل الأشياء متساوية وأنه لا أهمية لأى شىء ، وأن المسألة برمتها لاتساوى أكثر من صفر مكعب لايعلى عليه.

عند هذا المفهوم المريح وضعت خياشيمى فى رأسى وعشت عمرا آخر فى البحر. بهرنى عالمه فلم أفكر فى رفع رأسى فوق سطحه. لم تراودنى الرغبة فى رؤية الأهل والأبناء والأحباب.وجدت الحياة تحت الماء أكثر روعة.لكن قانون الأرض – للأسف – هو نفسه القانون السائد هنا، فالأضخم يبتلع الأصغر ، والقوى يلتهم الضعيف ، والبقاء للأقوى حتى من قبل أن يولد داروين ويعلن هذه المعلومة.

أخيرا حملت تجربتى على كاهلى وعدت الى الأرض، مخلوقا جديدا ليس من السهل عليه أن يفرح أو يحزن. المذهل فى الأمر هو ماقاله الناس عنى ، حسبما روى لى أحدهم.. وكأنهم يتكلمون عن شخص آخر غيرى لا أعرفه على الاطلاق.

يقولون اننى ما أن أصحو من نومى حتى يعد لى الخدم الافطار!!..أعاملهم أحيانا بأدب جم ، وأثور فيهم أحيانا لأتفه الأسباب. أتوجه بعد ذلك الى الحمام وأغنى كثيرا بالداخل. أقرأ عدة أسطر متناثرة من بعض الجرائد اليومية ، ثم ألقى بها الى الأرض مبعثرة فى غير اهتمام.أدير الكاسيت ليذيع الموسيقا الكلاسيك بصوت عال جدا ، وأظل أروح وأجىء فى غرف القصر بملابسى الداخلية ، وعادة ما ألعب قليلا من الرياضة الخفيفة. أهاتف المحامين حول القضايا المعلقة والنزاعات مع الخصوم من الأهل والأغراب.تزداد حدة عصبيتى.أتصل ببعض صديقاتى من الفتيات والمطلقات والأرامل. لا أحب أن تكون لى علاقة بامرأة متزوجة.أضحك ضحكا هستيريا..هكذا يقولون عنى..أرتدى ملابس الخروج ثم أطير بعربتى بسرعة مجنونة الى غير ما هدف.

يقولون أيضا "إنه يتوقف بأى مكان يخطر ببالة فجأة أو يذهب الى أى مخلوق يتذكره بمحض الصدفة، فيبذل ما بطاقته من وقت وجهد ومال حتى يعثر عليه.يثير زوبعة مع بائع لأجل قرشين. يهب بائعا آخر بقشيشا قد يعادل عشرة أضعاف ثمن مشترياته ، لمجرد أنه أعجب بابتسامته. يخرج بندقيته من حقيبة العربة. يتسلى بصيد النورس من البحر ويتلذذ برؤيته يسقط فى الماء. يستمتع بالفرجة على رفاق الطائر المصاب وهم يحومون حول فقيدهم مصدرين أصواتا حزينة متعاقبة كالنواح..عندما يتشتتون يسارع بإسقاط أحدهم على الفور. يخلع ملابسه ويسبح فى البحر ، وأحيانا ينزل بها كاملة حتى الحذاء.

يصب فى جوفه زجاجة كاملة من الويسكى ويأكل بأصابعه بلا ملعقة أو سكين أو شوكة. أعزب فى الأربعين"..هكذا يقولون عنى ، أما أنا فلا أعترف بعمر لى أو زمن ، كما علمنى الشيخ منصور.

"يتحدث لغات ثلاث – غير العربية - بطلاقة. يعيش فى قصر على النيل شتاء وفى قصر على البحر صيفا. يقول دائما انه يلعب فى الوقت الضائع ، وانه قد جرب الحياة فوق الأرض وتحتها ، فوجدها فى الحالتين عديمة القيمة.لايطيق معاشرة مخلوق مهما كان لفترة طويلة. يقرض الشعر الجميل لكنه يأبى نشره بين أفراد مجتمع معجون بالظلم والجهل والقسوة والنهم

المجنون الى المال ، فضلا عن أن الشهرة لا تستهويه على الاطلاق ، فهى غير واردة فى دائرة اهتماماته التى ظلت تتضاءل حتى كاد قطرها يساوى صفرا."

****

ولما كانت الليلة الأولى قبل الألف ، همس لى الشيخ منصور بنبرات تفيض رقة وحنانا:

"اعلم ياعادل أن من لم يسكن الى شىء لم يضطرب لفقده..وأنت قد سكنت الى الدنيا ، ورغم كل محاولاتك للانفلات منها ، إلا أنك مازلت مضطربا خشية أن تفقدها الى الأبد ، وما زلت مضطربا خشية ألا تنجح فى مسعاك ، لذلك فليس أمامك الا أن تتعلم حقيقة التوكل بأن تصير موحد القلب مطمئن النفس الى فضل الله ، واثقا بتدبيره دون النظر الى الأسباب الظاهرة التى تكاد تهلك فى مواجهتها.. ازدواجية قاسية لامفر من التعامل معها . نفس الازدواجية المرهقة بين الدنيا والآخرة وبين الحياة والموت ، لكنه قدر الانسان الذى لامفر من مواجهته حتى النهاية المحتومة.

- 8 -

● وصـل:

ومازلت أمشى أتفرج على الدنيا وعلى نفسى فى الناس وعلى الناس فى كل زمان ومكان.. ومهما بدت المشاهد التى أمر بها وتمر بى غير مترابطة باختلاف نوعها ومكانها وزمانها، الا اننى على يقين من قدرتى – بالصبر والمثابرة – على انتزاع روابط جوهرية تصل بينها جميعا ، مؤكدة على سذاجة الانسان بكبره وعجبه وتمرده وسقوطه فى شباك خداع الدنيا كل يوم وكل ثانية سقوطا مخجلا مضحكا..ومن الظواهر المتكررة التى رصدتها حتى الآن هى أن اللحظة التى يسقط فيها الانسان، غالبا ما يسبقها لحظة يشعر فيها أنه عظيم لايقهر ، وأن الدنيا كلها طوع أمره، وأنه – بصفة استثنائية دونا عن الخلق – لن يموت.

● فصـل:

التقيت به أمام محطة الترام.استسمحنى أن أشعل له سيجارته من سيجارتى . شاب مبعثر الهندام . واحد من هؤلاء الناس الذين كتب عليهم عناء الكدح حتى الموت. زلزلتنى ابتسامته الساحرة التى عبر بها عن شكره.كنت غارقا فى محاولاتى للربط بين ما أرى وبين رغبتى فى التوصل الى قرار. وجدت نفسى أبادله حديثا دنيويا عابرا من وحى لحظة الانتظار وازدحام الأرض ببنى البشر. فى ذلك اليوم لم يكن لدى سيارة ولا فيلا ولاخدم ولا رصيد فى البنك. تفاصيل الحديث لم أعد أذكرها، لكن الترام ظهر أمامنا ، فانقطع مابينى وبينه من وصل غامض وقلت له دون أن أدرى كمن سلب وعيه:

- نكمل الحديث داخل الترام ان شاء الله

أخذت تذكرتى وعدت الى شرودى فبقيت واقفا كالمخدور بجوار مقعد المحصل. أفكر بخوف فى المستقبل الذى يبتلع حاضرى. أسترجع مامضى من العمر بمزيج من الندم والحسرة والاعتقاد فى سوء الحظ. لمحت وجهى مبعثرا على زجاج الترام المحدب. تأملته بفضول شديد يخلو من الاعجاب النرجسى. ظظ !..

لم تتغير ابتسامته لى بنفس جلالها وحيائها ، وهو واقف يرمقنى من ركن بعيد بالترام. أتمنى أن أبتسم مثله حتى أتحرر من الخوف ، لكنى لم أفعل. قالت لى عيناه:

- أنا أعلم من البداية أنك تخلصت منى بلباقة لأنك لم تكن تنوى أن تكمل الحديث معى لازدرائك الواضح لمظهرى المتواضع.

رائحة عرق الركاب المكدودين تزكم أنفك. الترام بطىء جدا وأنت تعلم ذلك قبل أن تركبه. لن تلحق بموعدك. بحاجة أنت الى الايمان أكثر من حاجتك الى الأكسيجين. قالت لى احداهن يوما:

- ستموت ناقص عمر لشدة قلقك الدائم

لماذا أولاك ظهره؟..لعله يئس من توجهك اليه لاستكمال الحديث. لعله خجل من ترفعك تجاهه وتجاهلك اياه.لعلك مشفق عليه لشعوره بالدونية.لعلك فى مسيس الحاجة للتوجه اليه ، بل انك بالضرورة مضطر الى الذهاب اليه حيث يقف!!.

- كنت واثقا أنك ستجىء

- ومن أين جاءتك هذه الثقة؟

- لأننى عرفت حقيقتك

أصبت بفزع أمام ابتسامته الثالثة الواثقة التى عرتنى من ريشى

- كيف هذا ؟

- لاتستكثر علىّ موهبة من الله ليس لى فيها فضل

اقترب الترام من محطة نزولى. نظرت بقلق فى ساعتى.سألته بحسم:

- أين تنزل؟

- فى آخر الخط..وأنت؟

لست أدرى من يكون غيرى ان لم أكن أنا الذى أجبته بلا تردد كالمنوم مغناطيسيا:

- فى آخر الخط أيضا

ابتسم للمرة الرابعة ، لكنها كانت ابتسامة العارف يقينا بأنى أكذب ، أو بأننى مساق الى الكذب رغم أنفى، لأننى كنت عاجزا عن الانفلات من سحره الجاذب الغامض.

كنت أسيرا للحظة المكررة منذ بدأت رحلة المشى. لحظة امتزاج الماضى بالحاضر بالمستقبل ، وتوحد الزمن بالكون ، وبحثى عن الخلاص الأبدى. تراءى لى قطيع من الجمال يعبر الصحراء ، وطيور ملونة ترفرف بأجنحتها الرقيقة فوق نهر صغير ، وغابات لانهاية لها يكسوها الجليد وتغمرها الشمس وتهطل فوقها الأمطار بغزارة كالسيل ، وبراكين تقذف بحممها فى كل مكان ، وأطفال يمرحون ونساء يرقصن ورجال يصلون وعفاريت يظهرون ويختفون، ثم لم أعد أرى شيئا من ذلك كله ، وإنما أتت الى مسامعى نفس الموسيقا الهادئة التى أسمعها من حين الى آخر منذ بدأت رحلتى.

تعانقت أمواج البحر عناقا دام ساعات ثلاث.غادرنا المقعد الأخضر المواجه للشاطىء وقلنا نتمشى فى المدينة ونواصل الحديث.قلت له ما لم أقله لأى مخلوق عن نفسى.نفضت اليه بكل ما احتوت جعبتى من أدق أسرار حياتى التى ضننت بها على أقرب الناس الىّ. كان ينصت الى بابتسامته الخلابة، فيدفعنى بصمته وحسن استماعه الى استخراج أعماقى دون تردد وبإصرار وسرعة، كما لو كنت فى سباق مع الزمن.

خطر ببالى أن يكون هذا الشاب هو الشيخ منصور متنكرا ، حيث أنه أبلغنى من قبل أننى لن أراه سوى مرة واحدة.اننى لم أسأله عن اسمه حتى الآن ، رغم أنه يستمع الى منذ أكثر من ساعات ثلاث. قال بكل ثقة إنه على درجة متوسطة من التعليم دون أدنى شعور بالحرج أو الدونية. أسلمت لصمته روحى ، فلم تكن مسألة علم أو ثقافة ، بل كانت مسألة حياة أو موت!..ان كان هو الشيخ منصور فلماذا لم يخبرنى كما فعل من قبل؟..على أية حال لابد أن لحضوره هذه المرة – ان كان هو - شأن لصيق الصلة برغبتى الجنونية فى الخلاص.

أدرك رفيقى الساحر الغامض أننى تعبت من طول المشى ، فدعانى لتناول العشاء معه فى بيته. وافقت بخليط من الفضول والسعادة والرغبة فى إظهار التواضع.

انقضى زمن كالدهر قبل أن أفيق من ذهولى. البيت أشبه بقصر عظيم، ظننت فى البداية أنه واحد من خدمه. نافورة ملونة تتوسط غرفة المكتبة التى قادنى اليها فور دخولنا. عبق البخور المعطر يغمر المكان. الصفاء والشفافية يحملان المكان بأكمله ويطيران به الى أعلى السماوات. ابتسامته لم تتغير. لم يبد عليه أنه تأثر بذهولى لاكتشاف واقعه الخفى الذى لم يشر اليه خلال حديثنا الطويل، والذى لم أكن أتوقعه بأى حال. من أنت أيها المخلوق؟..

لم تواتنى الجرأة لأسأله عن سر هذا التناقض الصارخ بين مظهره ومخبره. قرأ السؤال فى عينى فأجاب بهدوء:

- كل هذه أشياء زائلة ، لاتشغل نفسك بها

ابتلعت ريقى بخجل شديد. أحضر مشروبا مثلجا وطبقا به قطع من الجبن والخيار والكعك المملح. فجاة قال بحرقة غريبة:

- حرام عليك يارجل..حرام عليك

توقفت عن الأكل وقد اعتدت توالى الصدمات منذ رأيته. نظرت اليه مستسلما فواصل الحديث:

- كل خط فى وجهك القاسى المعالم يقول انك رجل طيب جدا..لماذا أنت بعيد عنه؟..انه يريدك!

"ان كنت لا تريدنى فأنا أريدك ، وان لم تفتح لى الباب فأنا - رغم عشقى لدنياك - مقيم على عتبته ".

انتابنى منه خوف شديد. فكرت فى الفرار من منزله.نظرت الى ساعتى وقد بدأ نور الفجر يتجلى. ربت على كتفى وأطلق انذاره بحنان شديد:

- لولا أنه يحبك لما أمهلك كل هذا العمر حتى تقترب منه
ازداد خوفى.تبادر الى ذهنى انه درويش مختل ان لم يكن الشيخ منصور فعلا. انتصبت واقفا. وقف معى. قال بحزم:
- انى أحذرك..لم يعد أمامك وقت طويل !
عندما ارتميت على فراشى عجزت عن النوم. انها الرسالة المنتظرة بلا شك. انتبه ولاتضيع فرصة عمرك على روحك التى لازمتك ستة وثلاثين عاما فى حينه، وتسعة وستين عاما حتى الآن.
لم تفارق خيالى صورته لعدة أشهر. داهمتنى الحياة بأحداثها اللزجة وضاعفت من تشابك الخطوط على جبينى وتحت عينى، وازدادت كثافة الشعر الأبيض، ومعها آلام العظام والمعدة والقولون العصبى. كلما تأزمت بى الأمور تذكرت انذاره ، فأسارع الى مكتبى لألتقط رقم تليفونه. أضغط بإصبعى على الأرقام الخمسة الأولى وأتوقف عند الرقم السادس. لم يتغير شىء فى حياتى. اختلط الخوف بالقلق ولازمنى الشعور بالاهتزاز.
بعد صراع مرهق تسلحت ببقايا تراثى من العزيمة، وضغطت على الرقم السادس ثم السابع،ورفعت السماعة.ما أن سمعت صوته يستفسر عن محدثه حتى أغلقت السماعة مكهربا فى فزع . خيل الى أن نهايتى قد اقتربت ، وأن انذاره كان حقيقة لاتقبل الشك.
انغمست فى همومى الحياتية التافهة من جديد. ماعدت بقادر على الثبات.. قررت أن أذهب اليه بنفسى!..

****

● وصـل:

مهما حدث فلن أعرف اليأس. وكيف لى أن أعرفه وفيك أملى والرجاء؟. حين أصبح الصبح أفقت على انقباض صدرى واختناق روحى، وكنت أشعر بخوف شديد من أشياء مجهولة. كان الجو مكفهرا، ورغم هبوب ريح ساخنة متربة الا أن السماء كانت تمطر على فترات متناوبة قطرات ضخمة من الماء، أشعر بلزوجتها حين تسقط متثاقلة على وجهى.
سائر فى الطرقات على غير هدى. يؤلمنى غياب احساسى المعتاد بنعم الصباح التى اعتدت أن أحمد الله دوما عليها، من قطرة ندى لابتسامة طفل أو تفتح وردة على غصنها لتستمع الى زقزقة العصافير وهى تسعى الى رزقها مع الناس والدواب.
الأولاد بالمئات ذاهبون الى مدارسهم لايدركون شيئا. تتساوى نضرة الأوجه مع ذبولها أمام براءة العيون واخضرار القلوب. أفواه مفتوحة ونوايا بيضاء كالحليب، وكيف لاينتابنى الخوف على أيامهم بنفس القدر الذى ينتابنى فيه الخوف على نفسى من أيامى الفائتة والقادمة؟..واذا لم يكن الماضى مبشرا بالخير فمن أين تأتى الطمأنينة للحاضر والمستقبل؟..انه رعب الوجود يصيبنى ، فأحمل نفسى وحدى مسئولية الفوضى فى هذا العالم المعتم اللون ذى الرياح الساخنة وقطرات المطر اللزجة..ولكن مالك أنت بكون يديره ويدبر شئونه صاحبه؟. اعرف مقامك جيدا. ما أنت الا روح فى جسد حياته موقوتة بزمن مجهول. ما أنت الا كيان طينى قليل الحيلة ، مهما أوتيت من قوة، فلقد نزلت من مجرى البول مرتين.
وأنا أمشى وجدت نفسى ضمن عدد غير قليل من الرجال يمشون خلف نعش. انضممت اليهم بوازع قوى من الرغبة فى المؤانسة. اخترقت الجنازة العديد من الشوارع الضيقة والحوارى المزدحمة بالباعة الجائلين والأطفال ورواد المقاهى والسائرين مثلى نياما والمهرولين فى كل اتجاه بعيون شاردة ، يتسابقون جميعا نحو هدف يبدو أنه وهمى غامض.يا الهى كم تكاثر أحفاد آدم بدرجة رهيبة.تزاحموا فى الشوارع والطرقات والمصانع والمساكن والمدارس والمستشفيات ودور السينيما والملاهى الليلية والمساجد والمواخير. أحدثوا ضجيجا مزعجا فى كل مكان بأصواتهم وأصوات آلاتهم وقنابلهم وعرباتهم وميكروفوناتهم. تكاثرت عوادمهم وطفح كيلها فى المجارى وغازات المداخن والسيارات والطيارات ونفايات الطعام والدبابات

والمعامل ومخلفات الاحتراق الآدمى والآلى كافة ، فأصيبت حياتى بتسمم شديد يستعصى على العلاج.

بوازع اكتشاف نفسى للبحث عن مخرج لمعضلتى الأزلية ، اقتربت من اثنين فى حوار حميم على بعد خطوات قليلة من النعش:

- أنظر ماذا يركب المرحوم الآن!
- مجرد خشبة..
- أريد فقط أن أذكرك بما كان يصر عليه بالأمس وهو جالس بيننا
- آه.. المرسيدس. كان يتمنى بالفعل ركوب المرسيدس رغم ظهور موديلات أحدث منها
- ألا ترى أن عربته البيجو كانت أجمل بكثير من هذه الخشبة؟

صلينا على الميت الذى لاأعرفه ، وواصلنا المسيرة باتجاه المدافن. فى غمرة الفوضى والضجيج عند تقاطع شوارع أربعة ، مرق رجل لايتجاوز الأربعين من بين السائرين فى الجنازة حتى تجاوزها الى مقدمتها ، ووقف يرقص ويغنى فى منتصف الميدان ، مستخدما أصابع يديه كما لو كان يدق بصاجات معدنية. سقط منه بنطاله ولم يكن تحته سروال، أما نصفه العلوى فقد ستره قميص ومن فوقه جاكت مزدان بكرافات ملونة. كانت ابتسامته سعيدة بهيجة غافلة، تتحدى كل هذا الزحام البشرى من أحفاد آدم الساعين فى الأرض بضجيجهم وتهافتهم وتلهفهم وهرولتهم فى شتى الاتجاهات.. وبنفس القدر من التحدى كانت ابتسامته تتحدانى أن أصمد.

أنا أعرف أننى أبدأ من درجة دنيا في درجات القرب. أعرف أن درجتى دنيا ومطلبى دين ، فكيف السبيل؟.لو كنت قادرا على هداية نفسى الى طريقك لاهتديت اليك منذ زمن بعيد، فما أكثر اللحظات المصيرية التى أتانى فيها هاتفك ولم أستجب له.. لكن توقيت المشيئة ليس ببعيد فيما أحسب وأتمنى ، مادمت جادا فى سعيى. الذى يحيرنى أنه فى لحظة تكون الحياة حافلة بمجموعة من المسلمات الراسخة فى العقل والروح، وفى لحظة أخرى أجدها خالية تماما من أى أثر لها، وما بين اللحظتين أتقلب بين الدهشة والرضا، وبين الذهول والقبول، وبين الحزن والسرور.

زارنى طيف ملاك هبط الى الأرض بطريق الخطأ. نحن الآن فى المقابر ولكنى فى مكان آخر. أحلم بها. أطير معها فى السماوات وأهبط بها فى الحدائق الشاسعة والجنان الخضراء. هواؤنا معطر وأنفاسنا ملونة وحياتنا عشق ونشوة وهيام. أراها فى رداء أبيض وجناحين رقيقين. على رأسها تاج وردى تخلعه حين تجالسنى وتضعه أمامى. يفوح عبيرها فى المكان وأنظر الى شعرها الطويل الناعم والى عينيها الآسرتين فى وله لا أقوى عليه فى صحوى أومنامى ، فتدور رأسى وتأخذنى النشوة الى السماوات العلى. حينئذ فقط أجرؤ على مبادلتها الحديث ومطارحتها الهوى والغرام. نغوص معا فى قلب الدنيا فيجمعنا الليل والطعام والمجون والفتوة والشراب والموسيقا . تقول لى ان الحب باهظ التكلفة وان العمر قصير. نتشبث بالنشوة حتى النخاع فتنفجر ينابيع الحياة ونجرى فى الشوارع تحت المطر كالمجانين. لنا الأرض والسماء والأيام القادمة والسنوات والنخل ذات الأكمام. سيداتي آنساتى سادتى..عليكم بالفرحة والرقص. من لم يعرف الرقص لم يعرف معنى الحياة، ولايفنى فى الله من لايعرف قوة الرقص.

فاتت سنوات وسنوات من الصمت والسكون والبصر والاستبصار والدخول والخروج والحزن والفرح ، وكان النور أمامى فلم ألمحه.كان الحلم فى سراديب صدرى فلم أنتبه له. كان النهار طويلا والليل أطول ، ورغم ذلك فلم أنتبه لتسلل الزمن فى صمت.

- **فصل:**

بعد أن تبادلنا التحية جلست أمامه محاولا أن أبدأ الحديث معه عن صحته وأحواله. كانت اجاباته كلها بهز الرأس دون كلام. بين الحين والآخر كنت أرقب الكلب الضخم الذى يحتضنه

ويربت عليه بين الحين والآخر. كنت خائفا من ضخامته ومن صوته المزمجر. لم أفهم سر ذلك الانقلاب الحاد فى معاملة الرجل لى.سألته ان كان يعانى من ألم فى لسانه أو فمه يمنعه من الكلام ، فهز رأسه نفيا. قلت له بعد أن استبد بى اليأس:

- اذن فأنت لاتريد مخاطبتى

هز رأسه نافيا ، ثم أشار بيده الى خادم أحضر لنا كوبين من الشاى. سألته فى حيرة:

- هل أنت غاضب منى لسبب ما ؟

هز رأسه نافيا مرة أخرى.

- هل أنت عاتب على لعدم الاتصال بك طيلة الفترة الماضية منذ التقينا؟

هز رأسه نافيا.

- يبدو أن زيارتى غير مرغوب فيها ، أو اننى جئت فى وقت غير مناسب دون استئذان

وقمت من فورى لمغادرة القصر غاضبا، فاستوقفنى قائلا بحدة وقد تغيرت معالم وجهه:

- أنا الذى أقرر متى تنصرف

ثم أشار بيده فحضر عمالقة ثلاثة لم أر أحدهم فى زيارتى السابقة، وقال لهم ببساطة:

- كتفوه !!!

فى غمرة ذهولى وضعونى على مقعد وكتفونى اليه بحبال غليظة يستحيل الفكاك منها.

- ماهذا الذى يحدث يا سيدى؟

ثم تذكرت أننى لا أعرف اسمه..

- من المؤسف أننى لا أتذكر اسمك..لم هذا كله؟
- الأمر بسيط. أنت بحاجة الى التأديب ، فعمرك ينقص وذنوبك تزيد ، ولاتهتم
- ومن الذى أعطاك هذا الحق؟..ان ماتفعله هو الجنون بعينه
- على العكس ، فتعذيب جسدك بيد مخلوق يحبك سيحيل قلبك من قنبلة شر موقوتة الى قطعة من البللور الشفاف.
- هذه جريمة سأحاسبك عليها
- ألا تلاحظ أنك تهددنى بطمأنينة واثقة وكأنما ليست لرحلتك نهاية؟
- فك قيدى أيها المجنون
- ما سأفعله بك هو عين العقل

قال لخدمه:

- ضعوا له قلة ماء ، واتركوه أسبوعا بلا طعام ، وأغلقوا عليه باب الغرفة

ظللت أصرخ لمدة أسبوع ولا أسمع الا صدى صرخاتى. اختفى الجميع وساد الصمت وكاد الخوف يشلنى.

دخل أحد العمالقة فتنفست الصعداء وسألته بلهفة:

- أين هو ؟
- لا أعرف
- هل ستفك قيدى؟
- نعم

بعد أن حررنى قدم لى طعاما وفيرا وقال لى:

- كل حتى تشبع لتكون جاهزا للمرحلة الثانية
- أى مرحلة؟!..
- ستعيش أسبوعا آخر مع نفايات البشر !

لم أكد أعترض على ماسمعته ولم أفهمه حتى كمم فمى ووضع على عينى عصابة سوداء. كانت مقاومتى لعملاق فى حجمه غير مجدية ، فضلا عن أننى كنت منهارا.

جاء زميلاه وأعادا تكتيفى ثم وضعانى فى عربة نصف نقل صغيرة ، وانطلقا بى الى مسافة بعيدة. عندما توقفت العربة فكوا العصابة عن عينى وتركونى مكتفا. ألقوا بى فى مقلب زبالة

فى قلب الصحراء بعيدا عن العمران وانصرفوا.أصبحت عرضة لأن يفتك بى الذئاب والعقارب والكلاب المتوحشة، وتمنيت أن أعثر على بشر من مطاريد المخدرات أو قطاع الطرق ، حتى يفك قيدى.لم أحص عدد الأيام التى بقيتها فى قلب النفايات. كنت عاجزا عن تحريك جسدى رغم احساسى بالقذارة واللزوجة والنتن ملتصقة بجسدى ومحيطة بى من حولى، فضلا عن الحشرات التى كانت تسرح فى حرية فوق لحمى.

جاءتنى النجدة الالهية بقدوم عربة قمامة ضخمة لتفرغ محتوياتها من الخلف فوق رأسى .كان الظلام دامسا بحيث يستحيل على السائق أن يتصور وجود آدمى فى قلب هذه النفايات المتخمرة وفى تلك المنطقة الصحراوية النائية الموحشة. صرخت بشدة حين اقتربت العربة الرهيبة من جسدى ولامسته بالفعل. توقف السائق عن تحريك العربة فى اللحظة التى لامست فيها اطاراتها الخلفية والتصقت بها تماما.

****

● وصل:

خيل الى أننى سأعيش آمنا فى الجحر الذى اخترته. أصطاد العصافير والأسماك وأزرع الخضروات والفواكه وأربى الدواجن وأخبز العيش دون أن يتعرض لى أحد فى مكمنى البدائى العجيب. غير أننى كنت – من باب الاحتياط – أغادر جحرى من حين لآخر كلما أتت الى مسامعى أصوات بشرية ، ولو كانت على بعد كبير من موقعى. أخرج محملا بمدافعى وسيوفى وقد ارتديت درعا فولاذيا سميكا. أسارع بإطلاق دفعات كثيفة فى الهواء من حولى فى كل الاتجاهات ، لإرهاب كل من تسول له نفسه الاقتراب، ثم أعود فى طمأنينة الى جحرى. أخلع الدرع الثقيل وألقى بالأسلحة أرضا وأنام مستريحا ليتصاعد شخيرى فى السماء.

****

● فصل:

حملونى محطما منهارا الى جحرى الآمن. ألقى أهل بيتى بملابسى الملوثة الى صندوق القمامة الكبير. بعد الحمام الدافىء والشامبو المعطر ، استرخيت على فراشى وقد فقدت الاحساس بجسدى . أغلقوا على باب الجحر الداخلى وتركونى لأنام بعمق.

بعد أن اعدوا لى الطعام طرقوا على الباب حتى أصحو. لم أسمع شيئا.قالوا لى بعد ذلك انهم وجدوا الباب مغلقا من الداخل ، واننى رغم الطرق الشديد الذى استمر طويلا لم انتبه وظللت نائما أغط فى شخير عميق. اضطروا فى النهاية الى فتح الباب عنوة بكسره. اعتقدوا أن روحى قد صعدت الى صاحبها ، ولكنهم وجدونى مازلت حيا أسأل فى دهشة:

- هو فيه ايه؟!..

****

● وصل:

لا أنكر أننى تمتعت كثيرا بأن ظللت عمرى كله أفكر ، كما لا أستطيع أن أنكر أننى لم أستطع التوصل الى حقيقة ما، والأدهى أننى أصبت من ادمان التفكير بأكثر من عاهة ، مثل عجزى عن اتخاذ أى قرار، وترددى المعذب بين الخيارات العديدة ، واعتقادى بأننى صرت أفتقد الذكاء اللازم لمواصلة الحياة.

ولما كانت الليلة الصفر ، دبت الحياة فى خلايا مخى الهلامية ، ورحت أتذكر رفاق الرحلة الطويلة المرهقة ، وكيف كانت علاقاتنا حميمية تتحدى الزمن. تبين لى أن كلا منهم قد مضى الى حال سبيله فى المكان والزمان.

تساءلت كيف أستطيع مواصلة الحياة بعد أن كتبت لى من جديد. كنت على وشك الاختفاء النهائى من سجل الأحياء التائهين فى محرقة الحياة، دون مسئولية من جانبى. سبحت فى

سحب الهموم اليومية المملة وأنهار الخوف من بطش الأيام ، وبحور اليأس من قدرتى على الوفاء بالتزاماتى الجبرية تجاه البشر، حتى أننى تساءلت من جديد عن المعنى الجوهرى لحياتى التى لاتريد السير على هواى ومبتغاى ، لكنى لم أعثر على اجابة.

كان اطار العربة الضخم ملامسا لظهرى حين توقفت العربة. حركة واحدة الى الخلف كانت تعنى نهايتى مدهوسا تحت عربة قمامة فى مقلب قمامة. تقبلت تهنئة الناس بالنجاة وكنت أتعجب لذلك ، فهم أولى منى بالتهنئة على حياة يمارسونها بعزم ودون تردد، فيالهم من شجعان جديرين بالغبطة والحسد ، حتى لو كانوا جديرين بالرثاء بدلا من التهنئة.

****

● فصـل:

هاهى السماء تمطر والزهور تتفتح، ويستحيل الكون الى روضة من رياض الجنة تعبق بالعطر ، وفيها تشدو الملائكة بأعذب الألحان. دلّونى يامخلوقات الله من إنس وجان: هل هناك حب يحيا بلا قرب؟..وهل هناك زرع ينمو بلا ماء؟..يا أناشيد الرحمة ويا كلمات الوجد وياحروف الموسيقا ، أليس العذاب بعينه هو حرمانى من لقاءات الوجد والأنس والمناجاة التى أتوق اليها؟..أليس الحرام نفسه هو السقوط تحت أقدام هذا العالم الذى لايطاق بخداعه وأكاذيبه وتصنعه وقبحه وساديته؟!..

قالت لى آمال ، والتى لابد أنها ماتت ، ان الرجال السذج يعتقدون أن المرأة أكثر رومانسية من الرجل ، لجهلهم بأنها أكثر واقعية منه ، لكنها اعترفت فى الوقت ذاته بأنه ما من مصيبة تحل برجل الا ويكون من خلفها امرأة. قالت لى بنبرات حانية وعينين ودودتين تفيضان بالفضول والدهشة:

- أرنى يدك

سلمتها يمناى فأمسكت بها وراحت تتحسس بطنها برفق جميل ، ثم قلبتها وتحسست ظهرها ، وإذ بها تضحك فى حياء صادق وهى تقول:

- ألا تلحظ أن يدك أكثر نعومة من يدى؟
- هذه حقيقة ، فأنا لا أغسل المواعين مثلك
- سلمت لى أصابعك التى خلقت لما هو أجلّ من ذلك وأعظم

رفعت يدى الى فمها وقبلتها بكل ما فى الدنيا من وداعة ورقة. لم تشفع لحظات الرومانس المتسامية لخيالى أن يكف عن تجريدها فى نفس اللحظة من ملابسها، وأن أنصهر معها فى أتون النشوة العارمة.

● وصـل:

على شاطىء سانتا مونيكا المطل على المحيط الهادى ، جلست بمطعم صغير وأكلت سمكا شهيا. كان بصحبتى فتاة أمريكية تعاكسنى بالعبث بين حين وآخر فى مكان حساس من جسدى لتثير ضحكى. الشعب الأمريكى شعب طيب. الكارثة فى حكوماته التى تكره العرب والمسلمين.

بعد أن مشيت من عمرى طويلا ألقى بى الموج الى الى شاطىء جزيرة مانهاتن الأمريكية. تلقفنى على باب الأمم المتحدة رئيسها المصرى – الكئيب – فى ذلك الوقت.موظف بيروقراطى عجوز ذو تجاعيد متشابكة فى غلظة قاسية على وجهه. قبل أن أقول له شيئا راح ينفى عن نفسه المسئوليات كافة:

"الدول الغنية لاتدفع ، والدول الفقيرة لاتعمل ولا تنتج ، وانما تتناكح شعوبها وتتناسل بحماس شديد".

"هذه الشعوب تعتمد على أن الله هو الرازق ، فيتحدثون عنه كثيرا ، لكنهم لايستفيدون من عطاياه، بينما لايتحدث أهل الغرب عنه الا قليلا ،ويعملون كثيرا مسخرين عطاياه فى خدمة أنفسهم".

"الحروب تنفجر فى كل مكان. أصبحت الكرة الأرضية ساحة حرب شرسة".

"التكتلات الاقتصادية الكبرى وضعت دول العالم الثالث أمام احتمال المجاعة"....

أصابنى حديثه الواقعى المقرف بالغم فتركته وقلت فى سرى:

- اما أن يعينك الله على ماتدعيه من مصاعب ، وإما أن يأخذك فيريح العالم من وجهك العبوس ، ويأتى الى مكانك برجل غير شكّاء،يعرف كيف يبتسم.

ولما التقيت بالعديد من الهيئات التى تضطلع بالمحافظة على حقوق الانسان، حدثتهم عن السجون والمعتقلات فى بلادى وعن قانون الطوارىء الأبدى وعن تزوير الانتخابات وتأليه الحكام الفاسدين، فقالوا لى ان حرية الرأى مكفولة لكل انسان بحكم قانون الحريات السماوى قبل أن يكون مكفولا بدستور الحريات الأرضى. فتشت فى سماء العالم العربى وأرضها عن صاحب رأى نجا بذيله مما سبق ذكره ، فلم أعثر على أحد. كان كل من قابلته منهم إما مقطوع اليد أو الذيل أو اللسان أو الخلف.

ومن شاطىء سانتا مونيكا الى شاطىء رأس التين ، وعمرى سبع سنوات وعدة أشهر وبضعة أيام وساعات ، كنت قد اصطدت سمكتين كبيرتين أثارتا دهشة الصيادين من حولى. لم أكن أعرف أننى حين أكبر سوف اخوض تجربتين فى الحب وأنصهر فى أتونهما الملتهب، حتى يتبين لى فى النهاية أن كل شىء الى زوال. توجهت بالسمكتين الى عم درويش صعلوك رأس التين الملتحى، القابع فى خيمته المهترئة على أقصى طرف الشاطىء بعيدا عن العالمين. كان كعادته يشرب صوت الموج والريح مع الكحول الأحمر الرخيص ويأكل الترمس والخيار. أعطيتهما له ليشويهما ويأكلهما كما لو كان ابنا لى أحنو عليه. على وجهه كانت تتجسد آيات غضب أسطورى من الوجود والعدم معا فى ابتسامة غامضة مستقرة لاتفارقه. كل الأطفال يخافون منه ويكرهونه ولا يجرؤون على الاقتراب منه فيما عداى لأنى أحبه. كنت أستشعر فيه معنى كبيرا غامضا وإن كنت لا أدركه. قال لى بحنان كثيف:

- عفارم عليك يا ولد.. أنا ميت من الجوع

فى المساء أعطتنى أمى بعض الملابس والأغطية القديمة لتحميه من البرد.قدمتها له حتى يستبدلها بخروقه الممزقة. سألته فى براءة:

- لماذا لاتحلق لحيتك ياعم درويش؟

أجابنى بهدوء وببراءة مماثلة:

- ولماذا أحلقها ؟

وبينما نجلس معا قال لى كلاما كثيرا غير مترابط أثناء انشغاله بشى السمكتين على نار الخشب. أكاد أذكر بعض كلماته رغم أننى لم أفهمها جيدا. قال ان معظم الناس كلاب ، وان الانسان مخلوق شرير بطبعه، وصمت قليلا ثم قال:

- أنا لا أريد أن أعرف أحدا ولا أريد شيئا من احد
- لم يا عم درويش؟
- أنا غنى عن البشر بالله والبحر ، رغم انى أستطيع الحصول على ما أريد من الملك

ذهلت لقوله. كانت بوابة الدخول الى قصر الملك فاروق لاتبعد كثيرا عن خيمته. سألته مدهوشا:

- وهل علاقتك بالملك وثيقة الى هذا الحد؟

أجاب فى ثقة رائعة:

- ألا تعرف أنه صديقى ؟
- نعم لا أعرف

- الملك مرّ بى عدة مرات وهو يتنزه بقاربه البخارى ، وهو يبعث الى كلما رآنى بأطباق من اللحم المشوى ، ومرة بعث الى بزجاجة نبيذ فرنسى. انه يحب مصر جدا
- لابد أنك تحبه كثيرا
- قلت اننى لا أحب أحدا غير الله وبحره الواسع
- ومصر؟..ألا تحبها؟
- لو كانت أحبتنى لأحببتها

كنت معجبا بغرابته وتناقضاته ، خاصة حين أسمعه يرتل القرآن بصوت خاشع، وقد علمت أن صوفيا من الغابرين قال انه ليس الى البغية سبيل ولا على درك الرضا دليل ، فللعقل صلف شديد، وللحس برق ظاهر ، والانسان بينهما أسير. وسألت نفسى كيف تغرق يا زول فى مثل تلك الهلوسات ، وأنت لم تتعاط شيئا يغيبك عن وجودك، فأنت حاضر ووجودك غائب عنك ، وأنت موجود وحضورك غائب عنك.

منذ شرعت فى البحث عن حل لقضيتى الترابية المعضلة ، قرأت النسخ الثلاث المقدسة المنزلة على التوالى قراءة جيدة. كانت الأولى مادة فاحترمتها. كانت الثانية روح فطرت معها الى السماوات الملكوتية العالية. وكانت الطبعة الثالثة- المنقحة من النسختين السابقتين – عدلا فعشقتها واعتنقتها وعشت فيها نشوة الايمان وحلاوة الحرية. المشكلة أن الذاكرة كثيرا ما تخوننى بشدة ، فأنسى وينكسر قلبى وأتساءل لماذا خلق الله الشر والأشرار، رغم أننى أعرف الاجابة التى تنطوى على مزيج مبهر من التراجيديا والكوميديا الانسانية وملايين علامات الاستفهام، فأغرق فى تاريخ الحروب الصليبية وفتح الأندلس وسقوطها، واختلاف الزعماء والمشايخ المصريين على ولاية مصر ، حتى فضلوا على أنفسهم رجلا ألبانيا يتاجر فى الدخان، وأتذكر قصة سيدنا يوسف مع زليخة الداعرة- زوجة الهكسوسى المحتل – وكيف أدخل اليهود الى مصر، فخرج بهم سيدنا موسى الى سيناء ،ودخل بهم يوشع بن نون الى فلسطين، فشتتهم نبوخذ نصر الى بابل،فأعادهم قورش الى فلسطين، فدمرهم طيطوس، حتى انتهى المطاف الى أن ساد بهم شارون العالم.

وعندما أفيق من هول التاريخ أدرك مدى ضآلتى فى أزمنة هذا الكون وأمكنته وحوادثه، وكم هى ماسة حاجتى الى النجاة من الضياع.

****

● فصـل:

عندما بلغت حدا معينا من العمر – لن أذكره احتراما للشيخ منصور موحد الأزمنة- ظننت أن قدرتى على الدهشة قد تضاءلت، وانه مهما أتت لى الدنيا بشيء أو استردته منى، فلن يكون الأمر بجديد، فالفرحة العارمة قد استحالت بالتقادم الى ابتسامة هادئة، أما الحزن العميق فقد صار عميقا يجلله وقار التجربة وخبرة السنين. هاهى الدهشة تستبد بى كطفل. تغتال الوقار والنضج ، فتعود بى الحياة الى سيرتها الأولى من جديد. ما أغرب هذا الشعور وما أروعه. انك تحبه يارجل أكثر مما تخشاه، فها هو قلبك ينتفض فجأة كعصفور بلل المطر جناحيه ، والمشاعر التى استكانت الى الطمأنينة تمردت عليها وراحت تعبث فى صدرك بلحن جديد، ترق أنغامه وتصفو وتنتهى بإيقاع كالنسيم، ثم لاتلبث أن تثور وتتصاعد كزلزال مدمر يكاد يعصف بالكون ، لكنها تعود فتهدأ وقد غمرت روحك بنفحة نورانية من الجلال والرحمة.

****

اتصلت بى سلمى قائلة ان الحاجه فردوس تسأل عنى كثيرا هذه الأيام ، ولابد أنها تريد رؤيتى. فى لمح البصر كنت عندها. نظرت الى نظرة طويلة عريضة عميقة غامضة ، ثم ابتسمت وقالت لى:

- ستكون من السعداء بإذن الله

وكانت هذه آخر كلمات سمعتها منها!..

****

"قالت لى الحاجة فردوس ان معظم ظهور الشيخ منصور لها يختص بى ، وذلك لشدة احساسه بأهمية ما أبذل من مكابدة وجهاد يصعب على نفسى الحائرة، ولشدة رغبته فى أن يكلل جهدى بالنجاح فأسعد بنفسى وتسعد بى أمى.. وقد ذكر لها ان داود عليه السلام قال عن الحق: انى حلفت بعزتى وجلالى ألا أفتح ثوابى لعبد دخل فى طاعتى للتجربة والتسويف... ياداود لاتجعل بينى وبينك عالما يحجبك بسكره عن محبتى. ياداود تحبب الى بمعاداة نفسك. امنعها الشهوات أنظر اليك وترى الحجب بينى وبينك مرفوعة. ياداود لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ورفقى بهم وشوقى الى ترك معاصيهم ، لماتوا شوقا الى وتقطعت أوصالهم من محبتى...ياداود احوج ما يكون العبد الى اذا استغنى عنى ، وأرحم ما اكون بعبدى اذا أدبر عنى ، وأجل ما يكون عندى اذا رجع الى."

- 9 -

● وصـل:

ولما كان العام 1980- مع الاعتذار للشيخ منصور لتحديد الزمن – قادتنى قدماى الى بلاد الفايكنج. التقيت هناك بكاتب ضخم أشبه بوحش كاسر. كان شبيها بالملك فاروق حين خلع قميصه كاشفا عن غابة من شعر ابرى كثيف يغطى صدره العريض. وضع أمامى زجاجة من نبيذ اسمه"سيدى ابراهيم" كان قد جلبها معه من الجزائر. قال لى بجدية ووقار:

- اشرب ولا تخف من عذاب النار. هذا نبيذ عربى اسلامى

وقدم لى زوجته قائلا:

- هل رأيت كم هى رقيقة كملاك؟.. انها تحبنى رغم أنها تعلم عنى شيئين تمقتهما تماما

- ماهما؟

- الأول أننى أضاجع نساء العالم فى كل بلد أزورها ، والثانى أنى لا أزور أمى الا مرة واحدة كل عام

ونحن نشرب سألته – من باب التفكه - عن معلوماته عن يوم الحساب فقال ضاحكا:

- هذا ما لم أحسب حسابه !

التقيت أيضا بفنان تشكيلى يعلق صورا فوتوغرافية مكبرة لامرأة بعينها فى أوضاع عارية متنوعة. عندما جاءت زوجته لمصافحتى بعد قليل فوجئت بأنها صاحبة الصور العارية. شكته الى فى دلال قائلة:

- هذا الرجل يرهقنى كثيرا. انه يستغلنى كموديل ولا يدفع لى شيئا. ألا يكفى أننى أحتمل المعيشة معه كزوجة؟.

أخذنى الرسام الى غرفة أخرى حيث قام بتحويل الصور الفوتوغرافية الى لوحات تجريدية لاتمت – فى مفهومى – بصلة الى الأصول الفوتوغرافية ، وقد عجز عن اقناعى تماما بما يريد أن يوصله الى من مشاعر وأحاسيس.

سألته بخبث:

- هل تصلى لله ؟

- صلاتى هى هذه اللوحات

التقيت بمصور يدعى برونو ، قال لى انه يكسب حوالى ربع مليون كراون شهريا ، وانه يعانى بمرارة من حسد الآخرين الذين يتهمهم بالمادية الشديدة ويصف أجسامهم بأنها تخلو من القلوب، ويكره حكومته بشدة لأنها تستقطع مايزيد عن ثمانين بالمائة من دخله كضريبة تصاعدية ، ولتلك الأسباب كلها فإنه كثيرا ما يعانى من موجات اكتئاب حادة تجعله أكثر تعاسة من انسان فقير بائس.

اصطحبنى برونو الى ملهى ليلى. أنفق ببذخ وراقص عدة فتيات خلال فترة تناوله العشاء. كلما عاد الى المائدة همس الى ببعض العبارات الخاطفة كما لو كنت مستودعا آمنا لأسراره المالية والعاطفية ، ولآرائه السياسية. مرة يقول:

- ان من دواعى فرحتى الشديدة أن التقى بشرقى مثلك ، فأنا أبحث عما تسمونه بالروحانيات التى نفتقدها هنا..ومرة يقول مشيرا الى سيدة عجوز:

- لم أراقص هذه الشمطاء لأنها تشبه زوجتى السابقة

وأخيرا قال لى محاولا قدر استطاعته ألا ينهار أمامى :

- ان الشعور بالوحدة يكاد يقتلنى!

****

للزمن رائحة غامضة تفوح بالشجن. يستهوينى ابتعاثها للماضى بأفراحه وأتراحه وجروحه التى تركت علاماتها على جدران القلب وبريق العينين. ما أجمل القديم برسوخه عبر السنوات شاهدا على أحداث مضت وأحباء غابوا عن الحياة.

مشيت الى مترو الأنفاق تشدنى تلك الرائحة العتيقة الى"جاملاستان" أو ستوكهولم القديمة، باحثا عن الأزقة الضيقة ذات المبانى العتيقة التى يسكنها التاريخ متأبيا أن يغير سكنه.قطع البلاط البازلتى الصغيرة السوداء التى رصفت بها طرقات المدينة منذ مئات السنين، تعود بى الى أزقة بوابة مورو وحارة الموازينى وزاوية الاعرج والأنفوشى والسيالة ورأس التين بالاسكندرية.

صباح الجمعة العظيمة وأجراس الفصح تجلجل فى الشوارع الضيقة. تغازل صمت الشمال الوحشى ، والذى ماعاد صمتا مع أنفاس الربيع المترعة بالنشوة. أشم روائح مصر ولبنان وفلسطين وسوريه ، وتروى لى الحاجه فردوس حكايا العناقيد والسنابل وجداول الماء والجنية الطيبة، حتى أشب فأنهل من ينابيع الشعر"وأكره أن أحب مثل الناس/ وأكره أن اكتب مثل الناس/وأود لو كان فمى كنيسة/وأحرفى اجراس."*..وآه ياقلب حين تتوجع من أقدارك العربية التى استباحها ثلاثة من آلهة الإغريق وأبوا أن يفارقوها الى يوم الدين.ولو أن فلكان ومارس وبلوتو** قد بذلوا دماءهم المقدسة للانتقام منا ، لما استطاعوا مثلما استطعنا نحن العرب أن نجعل من أنفسنا أضحوكة للعالمين.

غصت فى لجة القدم، وذبت بكامل رغبتى فى أغوار الزمان، حتى أننى لم أشعر بذاتى الا فى ميدان"أورفيوس". جلست الى نافورة التمثال الجميل، اله الموسيقا الاغريقى الذى سحر بقيثارته قلوب العذارى والعاشقين. من حوله ترقص الملائكة ويشيع فى الكون نغم بديع. تشدنى الى مصدره قوة حب للحياة جارفة، فأجدنى فى قلب نفسى وكأننى قد سحرت الى نبع للموسيقا والحب والجمال.

التقيت بعجوز يجلس حزينا بجوار النافورة. يتطلع الى بشغف شديد وكأنه يرجونى أن أكلمه. اقتربت منه وحييته فدعانى للجلوس معبرا عن امتنانه الجم.ما أن تعارفنا حتى بدأ يشكو لى بحرقة من وحدته بعد وفاة زوجته، وكأنه يعرفنى منذ زمن بعيد. سألته بإشفاق ودهشة:

- أليس لديك أبناء أو أصدقاء؟

أجاب بنبرة مترعة بالشجن:

- نعم ، ليس لدى ابناء ولا أصدقاء ، ولكن لدى كلبين
- كلبان؟!!!
- نعم

لم يكن مظهره يوحى باليسر. ترددت فى سؤاله ان كان بحاجة الى بعض المال . فاجأنى بسؤاله:

- هل زرت جاملاستان؟
- نعم ، وقد عشقتها

قال بخبرة العمر المتخفية بين ثنايا جلده وتحت جفون عينيه الحزينتين وخلف نظراته العميقة:

- هكذا توقعت منذ رأيتك
- كيف؟
- ان روحك التى انجذبت اليها بحب لتنشلنى من وحدتى لاتصلح للحياة هنا

---

*شعر نزار قبانى

**آلهة النار والحرب والموت

- لماذا ؟
- كنت أود أن أفسر لك هذا الأمر لولا أن أكلنى ذئب!

تلفت من حولى فى خوف ودهشة. خيل الى اننى وقعت بين براثن معتوه وربنا يستر.آن الأوان كى أنسلخ منه قبل أن تتصاعد شطحاته ، حتى أواصل المشى فى عاصمة السويد القديمة الرائعة.. وحيدا بلا رفاق ولا مجانين. فوجئت به ينفجر فى ضحك يتخلله سعال الشيخوخة الواهن:

- ماذا بك؟ هل خفت منى أم ظننتنى مجنونا؟
- العفو ياسيدى..لاهذا ولا ذاك
- لاتندهش ، فكلنا فى هذه البلاد الباردة قد أكلنا الذئب
- أى ذئب هذا؟!
- ذئب الرخاء والوفرة والرفاهية
- ولكنك حىّ امامى
- أنا حى أمامك فقط ، أو حين أتصل برقم هاتف لا أعرف صاحبه لمجرد أن أسمع صوتا آدميا !

لم أكن أتصور أن يجذبنى حديث هذا العجوز الممتع حتى الظهيرة ، حين أصر على دعوتى للغداء، ولما حاولت التملص منه إشفاقا عليه ، قال بابتسامة ساخرة:

- لاتنزعج أيها المصرى الحنون ، فبمقدورى دعوة سكان كل هذه المنطقة لتناول طعام. الغداء على نفقتى

ازدانت أزقة المدينة القديمة بالناس بعد أن كانت خالية فى الصباح. شعرت بطمأنينة بالغة للحاضر والمستقبل. أكد لى العجوز أن نبوءة السادات بتحقيق السلام بين اليهود والعرب سوف تصدق يوما ما.

فاحت رائحة الطعام من المطاعم الصغيرة التى يمتلكها الجزائريون والمغاربة، وانطلقت الضحكات السعيدة الخافتة ، وداعبت أنفى رائحة الشواء ممتزجة بعطور النساء وعبق النبيذ المعتق، وسألت"هارتر" الذى كان يعمل مدرسا للتاريخ:

- ترى هل تكمن صفات التخلف البشرى فى العقل أم فى الروح؟

نظر الى بإمعان شديد قائلا بجدية:

- ياصديقى يجب أن تعلم أن اعتزازى بجنسيتى لايختلف كثيرا عن اعتزازى بكلبىّ
- لكنك لم تجبنى
- بل أجبتك ، ولكن يبدو أن رائحة الشواء قد أفقدتك القدرة على التركيز والاستنتاج

قبل أن يحل المساء عدت الى العاصمة الحديثة. أوهمت نفسى أننى فى مصر ، فما الفرق بين شارع فى الهند وشارع فى تايلاند وكلها شوارع الله ومدنه وبلاده وأرضه وشمسه وسماؤه؟.. قلت أتمشى بمفردى فى تلك الشوارع اللامعة البراقة ، أحدث نفسى بصوت خفيض وأضحك وأحرك حاجبى الى أعلى وأسفل، مخاطبا كائنات وأفكار خرافية، حتى أتحرر من كل قيود العمر وأعود طفلا لاهيا. الشوارع خالية من المارة. نوافذ البيوت مغلقة ومن خلفها أصص الزهور الملونة ، وتبدو الستائر البيضاء المزركشة كمساحة من الفرحة تكسو لوحة كونية معجزة. الصمت هنا محير. أحبه حتى العشق وأرهبه حتى الموت. أين أنتم أيها الناس من آلاف البشر الهائمين الآن – بلا هدف – فى شوارع القاهرة تحت سماء زرقاء وشمس ساطعة، تحيط بهم جبال المقطم وتنثر عليهم أتربتها الصفراء العجوز ، وتكتظ بهم المقاهى- ليل نهار – يدخنون المعسل والسجائر، ويشربون أطنانا من الشاى الأحمر ويثرثرون ولو لم يعرف بعضهم البعض.

لم أكن اتصور استحالة أن يتسكع انسان فى شارع أوروبى فى الشتاء لمدة ساعة أو ساعتين. يكاد أنفى يتجمد وأشعر أنه يؤلمنى بشدة. حين خلعت قفازى وأشعلت سيجارة ، احمرت يدى وارتعشت.هاهو الموت يخيم على أشجار البيرش والباين العملاقة المكسوة بالجليد، ملقيا بثقله الكثيف على النهر المتجمد والبيوت المغلقة والشوارع الصامتة كما القبور.

انتابنى شعور قارص بالتعاسة لكونى انسان تائه فى وجودى حائر به. تحول هذا الشعور بعد قليل الى خوف يقترب من الرعب ، وكأن الطبيعة قد قررت اغتيالى فجأة،ولاسند لى ولا معين ، ولا مخلوق يوحد الله أو يثلثه أو حتى ينكر وجوده!.

أدهشنى أن هؤلاء الموتى يصخبون فى المساء ويعربدون رقصا وسكرا وغناء وضجيجا، ثم أعود لأجدهم فى الصباح وقد تحولوا الى كائنات روبوتية لايستطيع الواحد منهم أو لايكاد ينظر بإنسانى عينيه الى الآخر.

هاجمنى هم ثقيل جثم على صدرى بعنف ، وانهارت معنوياتى الى الحضيض، وكنت بحنان شديد الى سماع صوت ام كلثوم وهى تغنى"رق الحبيب".

رأيت فى منامى أن شعوب العالم الثالث قد فوضتنى للتحدث باسمهم لنفسى وللأمم المتحدة والبرلمان الدولى وجمعيات حقوق الانسان فى كل مكان. قبلت تكليفهم بفخر شديد. وضعوا على رأسى عمامة تشبه التاج، وقلدونى سيفا أثريا ثقيل الوزن لايقتل ذبابة ، وألبسونى قميصا حريريا ملونا وسترة حديثة الصنع وربطة عنق ما رأيت أجمل منها. لكنهم تركوا نصفى الأسفل عاريا تماما – كصاحبنا الراقص فى الجنازة – وألقونى من قاربهم المتهالك العتيق الى بحر الأحلام وقالوا لى:

- غص يابطل الأبطال فى عمق الانسان كيفما شئت ، وأرينا ان كنا كسائر الخلق جديرين بالحياة ، أم ان الموت رحمة لنا ونجاة!..

****

● فصل:

فى لحظة صفرية من عمرى المستدير على الأرض الكروية، تراءت لعينى الخيوط المضببة التى تشدنى فى خبث الى العالم وتربطنى به ،فهالنى ما لحق بها من تمزق فى البعض وتشابك عنكبوتى فى البعض الآخر، حتى أن بعض الخيوط كادت أن تفقد تواصلها الجذرى معى ، بل ان البعض منها قد قطع ، والبعض قد استطال وتمطى وتثاءب واسترخى ، فنام.

الحق أننى فرحت كثيرا بهذا الاكتشاف غير المنتظر، خاصة أننى قرأت عن رجل ذى معرفة أحترمه كثيرا ، أن المتشبث بالدنيا لايختلف كثيرا عن الكلب المتشبث بجيفة.. صحيح أننى تقززت من التشبيه فى بداية الأمر عندما تذكرت بعض ماحظيت به من نعم الحياة وملذاتها، لكن عدد الخوازيق الصلبة التى أقعدتنى الدنيا عليها بعد ذلك ، جعلتنى أصدق هذا الرجل ،فمنذ ولدت وأنا مجبر على التعامل مع خيوطى برفق وحذر ، أو بعنف وشجاعة ، كل فى حينه وطبقا لمقتضيات الحال وضرورات الحياة من دم وماء وهواء وفن ومحبة ومعرفة وتوق الى الحرية.لكن الحقيقة التى لم يكن هناك بد من مواجهتها، هى أن معظم الخيوط قد تهرأت بفعل الزمن وهول الأحداث، فأصبح من المتعذر على أحد أن يذكرنى، مثلما أصبح من المتعذر على أن أذكر أحدا. وكان السؤال الذى يؤرقنى دوما هو:

- هل تستحق الحياة كل هذا العناء وكل تلك المكابدة؟!..

غير أننى لم أتوصل الى حقيقة مؤكدة.ذلك ان الحياة ظلت تراوغنى كلبؤة حرون ، فتارة تلقى الى بلذة فأنطلق وراءها فى نهم وحماس دونما تقصير فى جهد أو عناء، وتارة تشدنى بعنف لتضعنى رغم أنفى على خوازيقها، وما أن أنجح فى الافلات منها حتى أقول لنفسى وأنا اداوى جروحى النازفة:

- اللعنة عليها..انها لاتستحق الاهتمام

وعلى الرغم من ذلك فقد قررت مواجهة لحظتى الصفرية بشجاعة جراح لايعرف التخاذل، وقررت التخلص من الخيوط العنكبوتية المتشابكة، وازالة ماسببته من تعقيدات للخيوط الأخرى ، واستئصال الخيوط المهترئة التى فقدت اتصالها بجذورها، طالما أن انفصالها عنى لم يختلف كثيرا عن اتصالها بى..وبالطبع لم يخطر ببالى أن أفكر فى إنشاء شبكة خيوط جديدة، فذلك

خارج عن اطار لحظتى الصفرية وعمرى المجهول، فضلا عن أن الخيوط الكائنة جميعا ليست من صنعى، وانه ليس بمقدور كائن بشرى أن يدعى فى صفاقة – أو حتى فى تواضع – أنه قادر على أن يصنع بنفسه خيطا واحدا من تلك الخيوط. قد يمكنه فقط أن يرتقها أو يغذيها بما ينقصها من أسباب البقاء المتصل بالأصل، أما من يتورط فى اعتقاد مخالف ،فقد ينتهى به المطاف الى الهوس.

على ضوء ماسطعت به اللحظة من بريق التمع فى ذهنى وتوهج ،كان لابد أن أقوم بأفعال بهلوانية منطقية ، وأن أقول كلاما جميلا غير معقول ، وأن أذهب ماشيا على يدى وقدمى الى بعض الأماكن التى لم تنتهك بكارتها بعد، وأن أتحاشى بعض الناس وألتقى بالضرورة بالبعض الآخر، وان كنت أشك أن أحدا على وجه الأرض مازال يذكرنى ، حتى أعلن له بكل فخر نتيجة عمليتى الجراحية المزعومة.

أسفرت تلك اللحظة عن شعور جارف بالحنين الى أمى. لكنها ماتت ، فلم تعد تذكرنى. بكيت عليها بكاء لم أعرف له مثيلا من قبل. الحاجة فردوس جبل الحكمة والقوة والمعرفة الفطرية والمرح التلقائى..لن أراها الى الأبد!!!.. لم أصدق ماحدث الا عندما رأيتهم بعينى وهم يهيلون التراب على جسدها داخل حفرة فى الأرض ، كما سبق أن أهالوا التراب على جسد الطبيب الذى تنبأ بموتى من قبل ، حين أدركت أنه لامعنى لنظرة تستجدى من حبيب ، أو لبضعة جنيهات مستحقة عند شريك أو صاحب عمل.

كما قادنى الحنين الى قلوب أصدقاء قاسمونى يوما حلاوة المشاركة فيما جادت به أواصر الخيوط من مسرات ونعم ، فوجدت أنهم تفرقوا بفعل قنابل الزمن الموقوتة التى لايسمع لانفجارها صوت ، والتى أخذت بشتات خيوطهم ما أخذت من الأهل والاخوة الحاضرين الغائبين، والرفاق الأحياء الأموات ، وذكريات الأزمنة السعيدة، فصارت بعض القلوب رمادا يمشى الناس عليه، وبعضها أحجارا صماء فقدت نبض الحياة.

هكذا صرت فى لحظة كائنا هلاميا ، قد انفصل بمعجزة عن هذا الكون المخيف ، وما جاد علىّ الزمن ببصيص من نور الفرحة بالتوحد مع انسان أعرفه أو أحبه أو حتى أذكره.. حتى الحنين الى الماضى فقد أثره وانقطع دابره.

****

والآن ، وقد استعرضت لنفسك كل الأحداث التى تكشف عن حقيقتك وخبيئة نفسك ومدى استعدادك للتغيير، هل تستطيع القول أنك عرفت نفسك؟

لو صح هذا ، فأبشر.. الطريق مفتوح أمامك للخلاص!.

****

جاءتنى الحاجه فردوس فى الحلم تروى لى عن داود عليه السلام أن الله قال له:

"ياداود أبلغ أهل أرضى أننى حبيب لمن أحبنى، وجليس لمن جالسنى، ومؤنس لمن أنس بذكرى، وصاحب لمن صاحبنى ، ومختار لمن اختارنى، ومطيع لمن أطاعنى. ما أحبنى عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه، الا قبلته لنفسى وأحببته حبا لايتقدمه أحد من خلقى. من طلبنى بالحق وجدنى ، ومن طلب غيرى لم يجدنى، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها ، وهلموا الى كرامتى ومصاحبتى ومجالستى، وأتنسوا بى أؤانسكم وأسارع الى محبتكم ، فإنى خلقت طينة أحبائى من طينة ابراهيم خليلى وموسى نجيى ومحمد صفيى، وخلقت قلوب المشتاقين من نورى ، ونعّمتها بجلالى".

قلت لها :

- أو حشتنى يا أمى

فقالت مودعة:

- أبلغ الشيخ منصور سلامى ، لأنه سيظهر لك من الآن الى ماشاء الله

****

● مـــزج :

صدق وعد الشيخ منصور ، وصدقت نبوءة امى. هاهو الشيخ منصور كما رسمه خيالى الى حد كبير.فى وجهه سماحة عيسى ومحمد.على فمه ابتسامة تسكن الطمأنينة فى القلب والصفاء فى الروح.

- **لم أكن لأظهر لك يا عادل الا بعد وفاة فردوس الحبيبة**
- **أغثنى يا شيخى ، فأنا لم أصل حتى الآن الى بر السلامة منذ قررت البحث عن الخلاص، رغم كل مابذلت من سعى وسفر ومشقة**
- **أغث نفسك بنفسك ولا تيأس أبدا حتى تصل بإذن الله**
- **كيف؟**
- **واصل السفر والمشى والتأمل والتفكر حتى تدرك مقام المحبة**
- **وماذا بعد؟**
- **تزود على قدر نيتك للقرب ، فالمسافة قريبة رغم انها بعيدة.**

***

الاسكندرية
مـــارس2012